F

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن نهج نهجه واتبع ملته واستمسك بكتاب ربه وسنته إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فنظراً لحاجة العمل الدعوي إلى القواعد الضابطة والمنظمة للممارسات الدعوية النظرية والتطبيقية في ميادين الدعوة المختلفة، ونظراً للضرورات الفكرية التي يفرضها الواقع الفكري المعاصر، حيث التحديات الكبرى والمهام الجسام المفروضة على الدعاة إلى الله تعالى في معالجة إشكالياتها، ومحو آثارها السلبية، ونظراً لأن المعالجات لقضايا الدعوة المنهجية تفتقد كثيراً من التصعيد والضبط في أطر منهجية علمية تحكم صياغة المنظومة الدعوية والداعي والمدعو والمدعو إليه، والمدارس والمؤسسات، والوسائل والقنوات حتى تفرز في النهاية عملاً مسئولاً متميزاً وفق مبادئ منهجية فكرية ضابطة وهادية.

ونظراً لأن الساحة الفكرية تنطوي الآن على خلط ولبس وتداخل في تحرير المفاهيم والرؤى المنهجية لأنها مازالت بكرة وخصبة، رأيت أن من الواجب الرسالي والعلمي المنوط بي أن أتقدم بهذه الأطروحات المنهجية بغية الإصلاح الفكري والعلمي والنهوض بالواقع الدعوي على أنها تمثل انطلاقة لرؤى منهجية أخرى توسع من مفاهيمها ومفرداتها وقضاياها، أو تضيف إلى ما وفقنا الله تعالى إليه من رؤى وأفكار وتصورات، انطلاقاً من مسئولياتها وواجباتها الدعوية، وأملاً في تصحيح المسار لدى الأطياف والتيارات والاتجاهات الدعوية الموجودة على الساحة الدعوية، ودعماً للأزهر الشريف كمؤسسة دعوية رائدة في العالم الإسلامي. وفق الله قادته المخلصين وعلمائه المهديين إلى ما فيه الخير للدين والدنيا والآخرة.

ثم أتقدم بهذه الدراسة المنهجية بعنوان: **«منهج الدعوة الاسترادادي دراسة تأصيلية»**.

أ. د / أحمد إسماعيل أبو شنب
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة بطنطا
جامعة الأزهر

قواعد منهج الدعوة الاسترادادي

قواعده وخصائصه

مفهوم المنهج الاسترادادي:

أقصد به ذلك المنهج المتبع في دراسة تاريخ وأحوال الأمم والشعوب والجماعات البشرية بقصد معرفتها ومعالجتها والاستفادة منها. وهو مفتقر إلى مجموعة من الحزم الضابطة التي تمثل عناصر قاعدية تقعد لعملية الاسترداد وتضبطه وتهدي المستدلين به إلى المنهج الأمثل في التناول والمعالجة.

هناك العديد من القواعد العلمية المنهجية التي يرتكز عليها منهج الدعوة الاستردادي، كما أن هناك العديد من الخصائص التي تميزه عن غيره من المناهج الدعوية الأخرى نوضحها فيما يلي:

المبحث الأول

قواعد المنهج الدعوي الاسترادادي

نجمل قواعد منهج الدعوة الاسترادادي فيما يلي:

1– السرد والتوثيق.
2– المقارنات النصية.
3– فقه المضامين الروائية.
4– تجريد الأحداث والوقائع التاريخية.
5– استنطاق النصوص وتجنب الإملاءات والغرض المعرفي.

وفيما يلي نحرر – تفصيلاً – المفاهيم الدلالية لهذه القواعد كحزمة من الضوابط المنهجية للمعرفة الناتجة عن قراءات التاريخ وتأملاته، وما يتضمنه من قيم معرفية، وتجارب إصلاحية تستكشف عبق التاريخ، وفهم سننه وقوانينه، ومعرفة «الثوابت» و«المتغيرات» والقيم المعرفية المكتسبة التي تهدي العقل إلى آفاق التاريخ، واستشراف المستقبل، وأهمية ذلك لإنضاج العمل الدعوي وضبط الممارسات الدعوية على الساحة في العصر الحاضر.

أولاً: السرد والتوثيق.

ويعنى بهذه القاعدة تتبع مساقات الأحداث والظواهر التاريخية، وجمع أطراف الحدث والظاهرة في إطار نشيج معرفي يخلص لقيم المعرفة التاريخية، وتفهم قضايا التاريخ، ومن لوازم هذه القاعدة المعرفية عدم إخضاع الحدث التاريخي لعمليات إقصاء وإزاحة لبعض أطرافه، أو للحزم الضاغطة التي أدت إلى حدوثه وبروزه، أو لعناصره البنائية التكوينية.

كما تعني عدم إخضاع وعائه الزمني ومساقاته التاريخية وملابساته لتلك العمليات وفق منهجية انتقائية تخدم الفكرة والتوجيه في دراسة الحدث وتفهم قضايا التاريخ، ولا تخدم «الحدث» التاريخي أو الظاهرة التاريخية في جوهرهما، كما تعني عدم إخضاع روايات الحدث – كوعاء دلالي مضاميني يحمل دلالات الحدث ومضامينه – لهذه الانتقائية، أو لتلك الإزاحة، وذلك الإقصاء، دعما لمسارات مغرضة في دراسة التاريخ كتلك التي تخضع التاريخ لتفسير مادي أو علماني أو إلحادي أو منهجي أو طائفي.

على أن الانتفائية التاريخية تتمثل في إحدى الصور التالية أو فيها مجتمعة ومنها ما يلي:

1– بتر النصوص وانتزاعها من مساقاتها بما يخدم الأهداف المعرفية المغرضة.

2– الاعتماد على النصوص الضعيفة والمتروكة والمرفوضة أو المجهولة في بيئة الحدث.

3– لي عنق هذه النصوص وتطويع دلالتها قسراً لخدمة التوجه.

4– عزل بعض النصوص الروائية للحدث عن سائر نصوص الرواية المختلفة بدلالاتها المتعددة ومضامينها المتنوعة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه «هدم نسيج الحدث أو الظاهرة» أو «عنكبة أنسجة الحدث» أي جعلها واهية كنسج العنكبوت وهذا يؤدي إلى اغتيال الحدث التاريخي ذاته، وتغييب العقل الواعي لهذا الحدث، وإثارة سحب من الضباب المتكاثف حول روايات الأحداث التاريخية والتي أطلقت عليها «أوعية الحدث الدلالية».

5– الاعتماد على النصوص المختلفة أو المصنوعة أو الموضوعة حول صورة الحدث.

ولا تعدو الانتقائية كونها تزييفاً للتاريخ وتشويهاً لحقائقه وانحرافاً بالمسارات المعرفية التاريخية القيمية إلى مستنقع معرفي آسن تتصاعد فيه «الجدلية التاريخية» وتغيب عنه الدراسة الواعية لمقاصد دراسة الأحداث والظواهر والوقائع وعبرها وعظاتها.

كما تعني هذه القاعدة «السرد والتوثيق» الاعتماد الكلي على وثاقة النص وصحته وقوته وكونه مظاناً للحجة والدليل والبرهان التاريخي الذي يستنطق الواقع بدلالات يقينية، لا ظنية وقطعية لا احتمالية، وإعمالاً لمبدأ الأمانة العلمية التي تقتضي عدم تزييف الوعي وتشويه حقائق التاريخ، ويمكن أن نطلق «وثاقة النص التاريخي» «الانتخاب الطبيعي للنص التاريخي» كوعاء أمين للأحداث والوقائع والظواهر التاريخية. وهذا «الانتخاب» لا يتعارض مع إنكار النزعة الانتقائية، فالانتخاب الطبيعي للنص يعني انتزاع الأقوى والأصح والأوعى من الأدلة ودلالاتها في معرض دراسة الحدث بخلاف الانتقائية التي تعني اختيار ما يخدم توجيه البحث من النصوص وليس الحقيقة.... فالانتخاب الطبيعي يركز على «الحقيقة المطلقة» للحدث، أما الانتقائية فتركز على «الحق المدعي» والتفسيرات المتوهمة للوقائع والأحداث والظواهر التاريخية.

ثانياً: المقارنات النصية.

ويقصد بهذه القاعدة ترتيب النصوص التاريخية وفق منهج الأولويات، ثم مقابلتها ببعضها ومقارنتها منطوقاً ومفهوماً في إطار فقه الموازنات والترجيحات حتى تتحقق مصداقية فقه الحدث أو الواقعة أو الظاهرة التاريخية، وتتناسب المقارنات النصية تناسباً طردياً مع عملية «الانتخاب الطبيعي للنصوص» - أو بالأحرى – الانتخاب الفوقي للنصوص الذي يحقق سيادة النص وسيادة دلالاته

الطبيعية وسيادة الحقائق التاريخية الماثلة في ثناياها... فكلما قويت المقارنات النصية قويت عملية الانتخاب الدلالي، والعكس صحيح.

على أن هاتين العمليتين متداخلتان إلى حد كبير بحيث يمكن اعتبار كل منهما مقدمة للأخرى وناتجاً لها، فالباحث في هذه القضايا ينتخب الأدلة ليقارنها، ويقارنها لينتخب الأقوى دلالة والأمضى حجة، وبين هاتين العمليتين تتضح الخبرات المعرفية لترشيد أحداث التاريخ ودراستها واستخلاص قيمها ودلالاتها.

وتتضمن العمليتان معاً اتجاهاً كمياً ونوعياً لعمليات من الإزاحات والإقصاءات النصية المتعددة لتقوية الانتخاب الدلالي ومقارنة النص، والتي لم يكن من الممكن تعبيرها تعبيراً صادقاً عن أنسجة الحدث ومنطوقه ودلالاته، كإقصاء الأدلة الضعيفة والموضوعة و«الملفقة» والشاذة... وهذا النوع من الإقصاء يطلق عليه ترشيد عملية «الاستدلال التاريخي» غي دراسة الوقائع والظواهر والأحداث التاريخية وهو يناقض «الإقصاء المغرض» و«الإزاحة المغرضة» للنصوص التي تثبت بالضرورة عكس المطلوب إثباته الأمر الذي يدعم التحكم في مسارات البحث التاريخي، وفقه النوازل والأحداث.

وتقتضي العمليتان معرفة مراتب الأدلة من حيث القوة والضعف، والصحة والوضع، والثبوت والنفي، ومراعاة الترتيب الرتبي من حيث الأولى صدارة والواجب تأخيره رتبة، وتقدير رتبية ما بين هذا وذاك.

ويترتب على هذا إسقاط بعض أطراف الحدث أو الواقعة وبعض مكونات الظاهرة التاريخية التي تتقاصر عن الثبوت في معرض النقد لكونها مدسوسة أو مركبة في مساقات التاريخ لا في مساقات الحدث وعناصره التكوينية. ذلك أن المقارنة النصية صورة من صور النقد الموضوعي لروايات التاريخ ومروياته، وعملية تضخم من نفايات التأريخ من جهة، ومن جهة أخرى تعظم الروايات الدالة على صدق الحدث بطريقة كمية ونوعية. فهناك كثرة من الروايات التاريخية ساهمت في البنى التكوينية للحدث أو الواقعة أو الظاهرة التاريخية وهي أبعد ما تكون عنها، وقد ألقت هذه الروايات على تلك الأحداث والظواهر والوقائع أعباءاً جعلت من تفسير التاريخ وفقهه ضربا من «اللامعقول» في بعض الأحيان هدد قناعات كثير من الباحثين بإمكانية وقوع الحدث، وأثار شكوكهم في مصداقيته، وتداعت إثر ذلك القيم المعرفية التاريخية المعبرة عن جوهر الحدث وقيمته، وتأتي عملية النقد الموضوعي لتنقذ ما تبقى من صور الحدث وأطرافه الحقيقية، وتزيل عنه ما أثاره التأريخ المغرض من غبار.

ثالثاً: تجريد الأحداث والوقائع التاريخية:

يعني بهذه القاعدة ما يلي:

1– إعلاء قيم النص الدلالية لوقائع التاريخ وظواهره وأحداثه على أن النص يمثل وعاءاً دلالياً مضامينيا لها. أو بالأحرى تصوير الحدث أو الظاهرة أو الواقعة التاريخية من خلال مصادرها اليقينية الثبوتية قطعية الدلالة والحجة في إطار ما نطلق عليه عملية «التمحيص النصي» لأحداث التاريخ ووقائعه.

2– تجريد الأحداث والظواهر والوقائع التاريخية من الإضافات التفسيرية للمؤرخين والتي تتخلل عمليات التأريخ لها، تلك الإضافات التي يقصد منها التأثير في صياغة عناصر الحدث وبنيته الأساسية، ومساقاته الجوهرية وفق رؤى وتصورات مغرضة تتحكم في صياغة التاريخ وفق إملاءات قسرية مغرضة توجه الأحداث على غير وجهها وتنحرف بها عن أوعيتها ومساراتها الواقعية كالتفسيرات المادية في مجال الاقتصاد والتي تحاول البحث عن جذور المادية في أعماق التاريخ الإنساني، وتحاول التأصيل للغرض القائل «البقاء للأقوى» وتختزل قيم التاريخ من قيم المادة، متجاهلة القيم الأخلاقية كأصل من أصول التكوين الأممي الاجتماعي أو التكوين الفردي في تاريخ تكوين الجماعات البشرية والمجتمعات الإنسانية. ومن أمثلة ذلك التفسيرات السياسية التي تؤصل للنظريات القمعية الاستبدادية التسلطية، وتبحث لها عن بيئة مناسبة للنمو تحت رماد الأحداث التاريخية، ومنها تلك الرؤى والتصورات التي تؤصل لحتمية الصدام الحضاري كأساس لنظرية سياسية حديثة تبناها الصحفي الأمريكي هنتجتون في كتابه «صدام الحضارات»[1] لأحداث بؤر الصدام الدامي بين الإسلام والغرب. ومن هذه التفسيرات أيضاً التفسيرات الاجتماعية لأحداث التاريخ التي تتبناها الاتجاهات «الوجودية» التي تحاول التأصيل لمبدأ الحرية المطلقة للفرد في ممارسة حقوقه وإشباع رغباته والتي تولدت عنها الاتجاهات الاجتماعية «الإباحية».

كما أن هذه التفسيرات المغرضة للتاريخ تفسر تاريخ الأديان بما يحمل من رؤى متضاربة ومتناقضة ومختلفة لإثبات الزعم الباطل «بوحدة الأديان» بهدف إقرار كل المتدينين على نزوعاتهم ومساراتهم التعبدية مع تناقض رؤاهم وتصوراتهم وطقوسهم[2] بغض الطرف عمن يعتقد بإله واحد كالمسلمين، أو بإله خاص كاليهود، أو بثلاثة مركبة في وحدة كالنصارى وقدماء المصريين، أو

(1) وقد ألفت بحثاً في نقد هذه النظرية المغرضة، نشر بحولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا.

(2) راجع أديان العالم للبروفسور د. هوستن سميث، أستاذ الفلسفة وعلم الأديان في عدة جامعات أمريكية – ترجمة سعد رستم ص 12، 13 – دار الجسور الثقافية، ط: 1426/1هـ - 2005م.

بـإلهين الزرادشـتية، ويـرون أن يسـووا بـذلك بـين مـن يعبـد الله تعـالى ومـن يعبـد الأوثان، وبين من يعبد الإلـه الحق ومن يعبد البشر، وبـين من يوحد الله تعـالى ومـن يثلثـه!! إنهـا الجدليـة الدينيـة التاريخيـة القائمـة علـى مبـدأ فاسـد هـو «تكـافؤ الأدلـة»[1]، أي اسـتوائها فـي الدلالـة وتكافؤهـا فـي الاسـتدلال، وهـذا التفسـير التاريخي المغرض لمسارات التعبد والتدين الإنسـاني عبر حقب التـاريخ ينقض الرسالات الإلهية التي جاء بها الأنبياء جميعاً والتي تقرر وحدانية الله تعالى، كمـا تتناقض مع صحيح المعقول.

ومـن ذلـك أيضـاً إخضـاع الـدين للتفسير المـادي للتـاريخ والـذي ترتـب عليـه الإيمان المطلق بالحس المادي وإنكار الغيب جملة وتفصيلاً، بـل إنكـار الإلـه ذاتـه كواحدة من أخص قضايا الغيب، مما ترتب عليه ذيوع النزعات الإلحادية[2].

وكما أن نزعة الجدلية الدينية فـي إطـار المسـارات التاريخيـة للتدين والأديـان لهـا مـن الخطـورة مـا يجعـل مـن الصـعوبة فـي ظلهـا معالجـة التناقضـات الحـادة والصارخة بفعل التحريف أو الوضـع، فـإن بـزوغ مبدأ «اللا أدريـة» كـرد فعل للجدلية الدينية[3] التاريخية في الأديان له من الخطورة ما يربو على خطورة تلك الجدلية؛ لأنه يغلق الباب كلياً دون دارسة تـاريخ التدين ودراسـة الظـواهر الدينيـة في إطـار حركـة التـاريخ وتفسيرها وفقه السنن الإلهيـة فـي الأفراد والمجتمعـات والأمم وتفسيرها وتعليلهـا... ولـو قُدّر لهـذين الاتجـاهين أن يسـودا لكانـت حركـة التدين في التاريخ الديني مرهونة باتجاهين، اتجـاه يقر التناقضـات الدينيـة ويغلـق مسارات الترجيح لبيان الصحيح من الخطأ، واتجـاه يتجاهل فقه الظـواهر الدينيـة التاريخية، مما يجعل تحرير الاعتقاد الصحيح من مسـارات التنـاقض أمـراً صـعباً إن لم يكن مستحيلا.

بيـد أن الله تعـالى قـيض للحـق قرنـاء فطنـين جعلـوا مـن الوسـطية الدينيـة

---

(1) راجع الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، تحقيق د. أحمد السيد سيد أحمد علي جـ 1 ص 14 وما بعدها – المكتبة التوفيقية – القاهرة – بدون تاريخ.

(2) راجع في هذا كتاب: الدين بحوث ممهدة لدراسة الأديان. د. محمد عبد الله دراز ص 37، 38 دار القلم للنشر والتوزيع – القاهرة – الأزهر، ط: 1424/5هـ - 2003م، والأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام، د. علي عبد الواحد وافي ص 123 – 130 نهضة مصر 1984م. وراجع: التفكير الديني في العالم قبل الإسلام – مطالعة في مكتبة علماء الملايو د. جامع أورانج كاي رحمات بن داتو بحر الدين، عرض وترجمة وتعليق د. رءوف شلبي – دار الثقافة – الدوحة 1403هـ - 1983م، وراجع: الإنسان والأديان دراسة مقارنة د. محمد كمال جعفر ص 208 وما بعدها – دار الثقافة – قطر، ط: 1406/1هـ - 1985م.

(3) الدين بحوث ممهدة لدراسة الأديان د. محمد عبد الله دراز ص 38.

والعقلانية مذهبا لتفسير تاريخ التدين، وفقه الظواهر الدينية يقرون من خلاله أصول الاعتقاد الصحيح من خلال حركة نقدية واعية لدراسة تاريخ الأديان بما فيها دعوات الأنبياء والمصلحين عبر مراحل التاريخ، فأقروا الحق وانتصروا له وبينوا صور التحريف والغلو في الدين. وأبطلوها، وقد برز هذا الاتجاه في الوسط الإسلامي وأيضاً في الوسط الغربي، لدى بعض العقلاء المعتدلين الباحثين عن الحقيقة المطلقة.

وعلى الدعاة والدارسين لتاريخ الأديان أن يدركوا قيمة هذه القاعدة وأهميتها للتمييز بين المعتقدات الصحيحة والخاطئة، وتصحيح مسارات الاعتقاد والتدين وترشيدها وتنقيتها من الأساطير والخرافات والأوهام.

رابعاً: فقه المضامين الروائية.

ويعني بهذه القاعدة تحرير عناصر الحدث أو الظاهرة أو الواقعة التاريخية بمختلف دلالاتها لإثراء عملية تفسير التاريخ، ولا مرية أن نضوج التفسير التاريخي يتناسب طرديا مع فقه المضامين الروائية قوة وضعفا، كما أن استبصار التاريخ يتوقف على تحليل مفرداته الدلالية وتحريرها من قيود المذهبية الغالية أو النزعات المفرَّطة في استكشاف غياهب التاريخ واستكناة أحداثه وظواهره، ففقه المضامين الروائية هو الذي ينثر في آفاق المعرفة عبق التاريخ ويستشرف بها آفاق المستقبل... إن إنضاج التصور المستقبلي هام لإنجاز الخطط الإستراتيجية للخروج بالأمم من أزماتها الراهنة، إذ لا مستقبل لمن لا يقرأ التاريخ، كما أنه لا يمكن اكتساب خبرات المعرفة التاريخية بدون استبصار عبر التاريخ وفقه دلالاته، واستيعاب عظاته واستيضاح حججه وبيناته، واستظهار سننه وآياته.

إن تغييب فقه المضامين الروائية لأحداث التاريخ وظواهره يعني الاتجاه الفائق نحو «الانعزالية التاريخية» كما يعني اجتثاث حركة التاريخ من جذورها وإذابة جسور المعرفة التاريخية التي تستوعب في جنباتها مسارات التاريخ... ومن يحمل بيده رواية تاريخية دون أن يعني بفقه مضامينها كمن يحمل شمعة غير مضيئة لا تكشف له جنبات الطريق، ففقه المضامين الروائية هو وقود حركة إنضاج الدراسات التاريخية في عجلة تتجه بقوة صوب المستقبل لصياغة مستقبل البشرية.

وهذا وذاك يضعانا أمام نظريتين يمكن أن نسميهما بما يلي:

الأولى: نظرية «الكمون التاريخي».

الثانية: نظرية «الانبثاق المعرفي التاريخي».

فالنظرية الأولى «الكمون التاريخي» تجعل حركة التاريخ راكدة آسنة في

زاوية الحدث، أو نابعة في مواطنه بلا حراك كالعناصر الكيميائية الخاملة التي تسلب من المادة عوامل فاعليتها. وفي إطار «الكمون التاريخي» تتلاشى الجسور وتذوب الجذور المعرفية.

أما النظرية الثانية «الانبثاق المعرفي التاريخي» هي التي تجعل من التاريخ مادة تفاعلية نشطة، وتجعل من عناصر الحدث التاريخي وقوداً نشطاً فعالاً كالوقود النووي يدفع بعجلة التاريخ نحو المستقبل بقدرة فائقة.

ويشترط لفقه المضامين الروائية ما يلي:

1– إزالة معوقات الإدراك وتتضمن التجرد من الهوى والأمانة في العرض والتناول.

2– معرفة مساقات الحدث أو الظاهرة وملابساتهما.

3– معرفة أسباب الحدث أو الظاهرة.

4– الفقه المقاصدي للأحداث والظواهر الروائية التاريخية.

5– عدم الاقتصار على مجرد السرد التاريخي للحدث.

6– عمق التأمل ودقة التحليل.

7– التزامن التاريخي لتفسير الأحداث والظواهر التاريخية، وهذا الشرط يختص بالتأريخ الآتي للأحداث، أي التأريخ للحدث وقت حدوثه، إلى جانب ما سبق.

التحديات التاريخية لفقه المضامين الروائية:

1– نضوب الروايات التأريخية حول الحدث سواء أكان تأريخاً لحدث وقع في الأمس الدابر أم إلى الماضي البعيد، مما يجعل زاوية النظر إلى الحدث أو الظاهرة التاريخية زاوية حادة مما يقلل المساحة الأفقية لدراستهما.

2– تضارب الروايات التاريخية وتناقضها حول حدث معين مما يلقي بأعبائه على فقه المضامين الروائية ودلالاتها التاريخية.

3– فقدان التزامن التفسيري للحدث او الظاهرة التاريخية لاسيما التفسير الآتي للوقائع والظواهر والأحداث، وليس بخاف أهمية التزامن التفسيري لمعطيات الأحداث التاريخية في تفعيل حركة التاريخ؛ لأنه يعبر بمصداقية عن الحدث في إطار المعايشة أو المشاهدة أو القرب، مما يعطينا دلالات أدق وتحليلات أعمق لمشاهد التاريخ وفصوله وعناصره إذا ما وضعنا في الاعتبار أن الحدث الآتي هو أقصر الظروف الزمنية أو الأوعية الزمنية وقتا إذا ما قورن بالماضي والمستقبل فإن امتداد الزمن فيهما أوجب من الآتي أو الحاضر.

4– الغموض الذي يكتنف بعض الأحداث التاريخية والناشئ عن التكتم والسرية سواء في أحداث التاريخ الماضية أم الآتية، مما يؤدي إلى فقدان الرواية

الدقيقة المصورة للحدث بعناصره، وهذا يدفع بدوره إلى التكهنات والإسقاطات الذاتية على تفسير الحدث بما لا يخرج عن إطار الظن والخرص، وثمة العديد من الأحداث والوقائع والظواهر التاريخية في تاريخنا المعاصر حيكت مشاهدها في إطار السرية الاستخبارتية في ظل تنامي الأحداث ذات البعد الاستخباراتي في العالم، الأمر الذي يعيق حركة تفسير التاريخ، بل يعيق حركة التأريخ ذاتها.

5– الإيقاعات السريعة للأحداث في العالم والناشئة عن التطور التكنولوجي المذهل في مجال الصناعات العسكرية، مما يلقي بأعبائه على حركة التأريخ، لاسيما إذا كانت هذه الأحداث مجهولة المصدر وإن اتسعت رقعة الحدث أو أوعيته المكانية، وهذا ينعكس سلباً على عمليات الفقه الروائي لمصادر التاريخ وقضاياه.

6– الاختلاق والوضع في صياغة بعض مشاهد التاريخ وظواهره، مما يلقي بأعبائه على تفسير العناصر الروائية للحدث وفهم مدلولاتها ومعطياتها.

7– تفسير المعرفة التاريخية في ضوء التراكمية الدائرية المنفصلة، أي اعتبار الأحداث التاريخية والظواهر والسنن حلقات معرفية دائرية منفصلة بحيث تمثل كل دائرة منها جانبا من جوانب التاريخ ودوراً من أدواره في إطار انقطاع المؤثرات التاريخية والتدخلات الفاعلة بين هذه الدوائر.

وكل هذه التحديات تقلص من المساحات المعرفية التفسيرية لحركة التاريخ أمام الدعاة والمصلحين في مختلف ميادين العمل الدعوي والإصلاح الاجتماعي وكذا السياسي، وتلقي بلا ريب بظلال من الشك والتردد والحيرة في فهم دلالات الأحداث والظواهر ومعطياتها التاريخية، كما أن هذه التحديات تعطي قيما سلبية للتاريخ وتصور ديناميكيته أي حركته صور «استاتيكية» ساكنة كامنة تغتال عناصر الحدث النشطة والفاعلة في حركة التاريخ الواعي.

خامساً: استنطاق الواقع التاريخي وتجنب الفرض المعرفي.

من قواعد المنهج الاسترادادي «استنطاق الواقع التاريخي وتجنب الغرض المعرفي» ويعني بهذه القاعدة استلال عناصر الأحداث والظواهر التاريخية من الواقع وتجنب الإملاءات والغرض المعرفي في تصورها وصياغتها، وغياب هذه القاعدة عن فهم معطيات التاريخ وحركة التأريخ للحدث أو الظاهرة يعطي مساحة كبيرة للتخيل في صياغة التاريخ، مما يفعَّل روافد العناصر الأسطورية اللامعقولة واللاواعية في حركة التأريخ، الأمر الذي يجعل موضوع الحدث أو الظاهرة التاريخية وصياغته فناً من فنون الأسطورة ويسلب منهما واقعيتهما ومصداقيتهما... ولا يعدو الغرض المعرفي في إطار فهم حركة التاريخ إلا مزيداً من التدخل اللامسؤول والطرح القسري على جوهر الحدث ومضامينه ومعطياته

الدلالية.

ويشترط لفاعلية هذه القاعدة ما يلي:

1– توثيق الروايات التاريخية.

2– إخضاع الروايات التاريخية لعملية نقدية قوية تعمل على إزاحة عناصر الحدث اللامعقولة من جوهر الأحداث ومضامينها.

ولا مرية أن هذه القواعد في مجملها ضرورية وهامة لتفسير التاريخ بأحداثه وظواهره وضبط حركته التأريخية وتصور فصل إحداها عن الأخرى يخل بمقاصد دراسة التاريخ، ويقذف بكثير من قضاياه في دائرة «اللاوعي» و«اللامعقول».

ولا يخفى ما لهذا المنزع من خطورة بالغة على مسار الدعوات الإصلاحية وممارسات الدعاة العملية مثلما لا تخفى أهمية هذه القواعد في إثراء التجارب الدعوية وإنضاج خبرة الدعاة باستبصار حركة التاريخ وتوظيفها لإنجاح عملهم الدعوي وتفعيل اتجاهاتهم الإصلاحية لبناء الإنسان بناءاً قيمياً معرفياً.

وفيما يلي نتحدث بمشيئة الله تعالى عن خصائص منهج الدعوة الاسترادي وأهميتها للعمل الدعوي وفقه مسارات التاريخ وقضاياه.

المبحـــث الثانـــي

خصائص منهج الدعوة الاستردادي

يختص منهج الدعوة الاستردادي بعدة خصائص تشكل ملامحه، وتعين على فهمه، من أهمها ما يلي:

1 – البناء المعرفي التراكمي.
2 – إعلاء القيم التاريخية.
3 – فقه الواقع الإنساني والكوني.

أولاً: البناء المعرفي التراكمي.

يُعد «البناء المعرفي التراكمي» إحدى خصائص منهج الدعوة الاستردادي التي تشكل أطره وأطيافه ومجالاته، وملامحه، ويقصد بها: أن البناء المعرفي التاريخي بناء تراكمي سواء أكان كمياً أو نوعياً، بمعنى أن المعرفة التاريخية تبدأ من اللحظة المتغيرة في أفق الحاضر في خط رجعي إلى بذور التاريخ في الماضي السحيق لتمثل حقبها المعرفية دوائر متسلسلة متقاطعة مترابطة لا تنفصم عراها على هذا النحو:

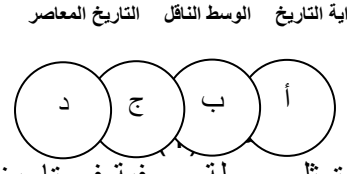

1– فالدائرة (أ) تمثل مرحلة معرفية في تاريخ الإنسانية تتقاطع مع الدائرة (ب) التي تمثل مرحلة ثانية من تاريخها، والدائرة (ب) تتقاطع مع الدائرة (ج) التي تمثل مرحلة ثالثة من تاريخها، والدائرة (ج) تتقاطع مع الدائرة (د) التي تمثل مرحلة رابعة من تاريخها... وهكذا.

2– وتمثل النقاط (س)، (ش)، (ص) محاور التقاطع والتداخل الحاد والفاعل بين هذه المرحلة المعرفية التاريخية، وهذا وذاك يقتضيان أن الدائرة الأخيرة (د) التي تمثل التاريخ الحديث لا يمكن عزلها عن الدائرة الأولى (أ) التي تمثل بداية التاريخ، وأن نقطة التقاطع المحورية الأخيرة (ص) لا يمكن فصلها عن نقطة التقاطع المحورية الأولى (س)، وكذلك سائر الدوائر ونقاط التقاطع المحورية الأخرى.

3– على أن نقاط التقاطع المحورية بين الدوائر المعرفية الأربعة تمثل الكم المعرفي المؤثر في هذه الدوائر على نحو تصاعدي يبدأ من الماضي السحيق [الدائرة (أ)] إلى الماضي القريب [الدائرة (ب)] مرور بالحقب الوسطى أو البينية التي تمثل الدائرتان (ج)، (د) فيها العامل المشترك أو «الوسيط الناقل» للمعرفة

التاريخية.

هذا ولا يمكننا تصور المعرفة التاريخية على شكل دائري متعدد منفصل كما هو الحال في هذا الشكل:

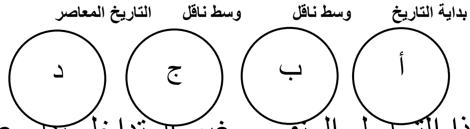

وذلك لأن هذا التسلسل المنفصم غير المتداخل يدل على ما يلي:

1– انعزالية حقب التاريخ، واعتبار كل حقبة معبرة عن ذاتها على نحو ينعدم فيه التأثر والتداخل التاريخي للأحداث والظواهر التاريخية بين هذه الحقب التاريخية المتتالية لا المتوالية(1).

2– انعزالية المعرفة التاريخية في كل حقبة من هذه الحقب عن الأخرى.

ويترتب على هذا التصور الانعزالي في التأريخ لحركة التاريخ وتفسير ظاهره ما يلي:

أ– قصور التفسير لحركة التاريخ الإنساني العام عبر حقبه المتداخلة بالضرورة.

ب– إسقاط المؤثرات المعرفية البنائية العامة في ظواهر التاريخ، وأحداثه ووقائعه.

ومعرفة أوجه التداخل الفاعل في البناء المعرفي عبر هذه الحقب، وعدم فهم عوامل قيام الحضارات وانهدامها، واستقامة الأمم وانحرافها.

ج– عدم فهم تاريخ دعوات الأنبياء والمصلحين ودورها في بناء الإنسان واعتبارها حلقات منفصل بعضها عن بعض في تاريخ التدين عبر العصور، الأمر الذي يوقع تفسير التاريخ في مآزق حرجة، لأن دعوات الأنبياء والمرسلين عبر التاريخ تمثل وحدة الدين الحق من لدن بعثة نبي الله آدم (υ) إلى بعثة رسول الله محمد (^) إلى قيام الساعة، ويعني بوحدة الدين وحدة الأصول العقدية والتشريعية والأخلاقية، وكذا المصدرية التي تأسس عليها الدين الإلهي الحق، وقامت عليها دعوات الأنبياء والمرسلين والدعاة المصلحين من أتباع الأنبياء ومن حذا حذوه.

وما يدعم تراكمية المعرفة عبر التاريخ قول الله تعالى: ژ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ژ (2)، وقولــــه

---

(1) لأن لفظ «المتوالية» يعطيمدلول الانتماء والصلة وهذا غير متصور في هذا الشكل التوضيحي، أما لفظ المتتالي فيعطي دلالة الانفصال وانقطاع النسبة.

(2) سورة البقرة: 285.

تعالى: ژ**ٱٻٻٻٻپ پپڀڀڀڀ**ژ [1] وقول الرسول (ﷺ): «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، الأنبياء إخوة لعلاتِ أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[2].

وهذا دليل على أن حلقات التاريخ، وحقبه المعرفية بما فيها من فصول ومشاهد لا يمكن فصل بعضها عن بعض، كما لا يمكن تفسير قضايا التاريخ وظواهره في إطار الفصل المعرفي، أو تقسيم التاريخ في إطار معرفي انعزالي.

إن «تراكمية المعرفة التاريخية» هي التي تبرز عوامل إثراء الثقافة الإنسانية والدينية عبر التاريخ، وتساعدنا على اكتشاف مساحات شاسعة من المجهول في الأفق المعرفي التاريخي لم يكن من الممكن اكتشافها في ظل «انعزالية الحقب المعرفية» كما أنها تحفز العقل على التأمل والنظر، وتكون بناءه المعرفي، وتعين الإنسان على تحليل مفردات التاريخ، واستيعاب أحداثه وظواهره الغابرة، استيعابا يمكنه من فهم الأحداث الآنية المنظورة، والمستقبلية «اللامنظورة» وفق إجراءات دقيقة من القياسات التاريخية والاستنباطات المعرفية في إطار المشاهدة والملاحظة والافتراضات العقلية والتصورات الذهنية [3]، والاستنتاجات المنطقية.

ولما كان الإنسان محور التاريخ والمؤثر في بنائه وتكوينه وصياغته، فإن الأحداث والظواهر والوقائع التاريخية ما هي إلا بنات أفكاره ومظاهر أفعاله... وكما لم يكن من الممكن تصور وجود الإنسان مجزءاً –أي مقسماً إلى أعضاء– إلى أجزاء؛ فإنه من غير الممكن تصور تاريخه في أطوار معرفية، منعزلة عن بعضها، منزوعة الأوصال.

ولابد للدعاة إلى الله تعالى من أن يفطنوا إلى أن المحور الفعال في المعرفية التاريخية أو في تاريخ المعرفة هو التواصل النشط في صياغة البنى المعرفية المؤثرة بقوة في حركة التاريخ وصياغته عبر حقب معرفية تاريخية متواصلة غير منفصمة، كما أن عليهم أن يفطنوا إلى أن عرض تاريخ الدعوة في صورة

---

(1) سورة الروم: 9.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله « واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت. . . » جـ 2 ص 449، حديث رقم (3443) – القاهرة – دار الحديث 1425هـ - 2004م.

(3) أي افتراض وتصور تكرار الأحداث والوقائع والظواهر التاريخية في المستقبل إن تكررت أسباب حدوثها، كما يدل عليه قول الله تعالى مهدداً بني إسرائيل: ژ**ٱٻٻپپپپڀڀڀڀ**ژ [الإسراء: 8] أي إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى الإهلاك والتدمير، ويراجع في هذا المعنى تفسير القرآن العظيم للإمام بن كثير، تحقيق/سامي بن محمد سلامة، جـ 5 ص 48 – دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: 2/1420هـ - 1999م.

حلقات منفصلة يقلص من قدرات التجربة الدعوية لدراسة حركة التاريخ وتوظيفها لخدمة العمل الدعوي ويعمل تغييب القيم الدينية والإنسانية في فقه حركة التاريخ.

ثانياً: إعلاء القيم التاريخية.

تعتبر خصيصة «إعلاء القيم التاريخية» إحدى خصائص منهج الدعوة الإسلامية الاستردادي؛ ذلك أن التاريخ وعاء زمني يستوعب الأحداث بمقتضياتها ودوافعها وأسبابها، ولا مرية أن تلك المقتضيات والدوافع والأسباب تحتوي منظومة القيم والمبادئ والأخلاقيات لكل أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات الإنسانية، على أن هذه المنظومة القيمية تعتبر معياراً دقيقاً لقياس حركة التاريخ، وضابطاً من ضوابط الجرح والتعديل – أو بالأحرى – الحكم على الآخرين بالاستقامة أو الانحراف... بالرقي الخلقي القيمي أو بالهبوط في مآسن القيم الهابطة. وإذا كان العقل ملهماً لبعض الأمم في وضع منظومتها القيمية، فإنه لا يمكن تصور انضباط هذه المنظومات القيمية بصورة مطلقة وذلك لما يلي:

1– قصور العقل البشري عن وضع منظومة قيمية كلية مطلقة لا تخضع للنقد، ولا ينتابها القصور، لأن مدارك العقل تعتمد على حواس إدراكية غير كاملة الإدراك.

2– إن العقل من الممكن أن يلهم الأمم والأفراد ببعض القيم لكنها لا تمثل منظومة متكاملة، وقد شاهد التاريخ بعض المبادئ والأخلاقيات القيمية الفاضلة – كالكرم والشجاعة والنجدة وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم والعدل والدفاع عن العرض والأرض والمال والقبيلة والعشيرة، وقد حوى جلب الفضول الذي عقده حكماء العرب في الجاهلية وحضره الرسول (^) قبل بعثته وأثنى عليه بعدها قائلاً: «لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت» - حوى بعضاً من هذه المبادئ القيمية، وإذا كان التاريخ قد شاهد هذه المبادئ الفاضلة في جملتها إلا أنه شاهد في بعض محاورها التفصيلية صوراً من الغلو في نظرية «المسؤولية والجزاء» فقد كانت القبيلة تقتل بالواحد قصاصاً ومثل القصاص بهذا في الجاهلية صورة من صور الإجحاف والظلم مع أنه يقصد به في جوهره إقامة العدل، لكن ما أقبح العدل الذي يتهدد حياة الآمنين المسالمين الأبرياء.

وفي العصر الحديث شهدت منظومة القيم صوراً عديدةً من صور الإجحاف واللامسئولية واللاوعي عندما اختزلت المادية القيم في المادة، وعندما اختزلت الشيوعية حق الفرد في حق الأمة، وعندما اختزلت الليبرالية أو المذاهب التحررية القيم في الإباحية، ولم تستطع منظومة القوانين التي وضعتها الأمم في

العصر الحديث صيانة الفرد والمجتمع بالصورة الكاملة، ومثلت الثغرات القانونية ملاذاً آمناً للمجرمين والمفسدين لكيلا يقعوا تحت طائلة القانون، وفقدت نظرية «المسئولية والجزاء» كثيرا من مصداقيتها، وفرغت في كثير من الأحيان من مضمونها!!!

3– إن العقل ليس معصوماً من مخالجات الخواطر الفاسدة والأهواء المضلة التي تعوق إدراكه، وتلبس قيم الحق بالباطل، كما لا يحظى نتاجه الإدراكي بالقداسة التي تدفع الناس وتسوق الفطر السليمة إلى الخضوع الكامل والانقياد الصحيح له، كما أن الخواطر التي تخالج النفس وتخامر العقل ليست معصومة من لمة الشيطان، فكم من حق استبيح تحت وطأة الباطل!! وكم من عرض انتهك باسم الحرية الشخصية!! وكم من بنت وئدت خشية الإملاق!! وكم من أناس أبرياء شوهت سيرتهم بالظَّنة والتهمة!! بل كم نبي قُتل بالكبر والاستعلاء!! وكم من أمم أبيدت طمعاً في مقدراتها!! وكم من غني أطغى وألهى وسلطان بغى وأفسد!! فالقول بالعقل المطلق مفسدةٌ وتضليلٌ وهو في عرف الشرع تهويل أو تهوين؛ لأن العقل معوز إلى مصدر كامل يضبط مداركه ويصحح مساراته، ويلهمه رشده ويهديه سبل السلام.

وهذا لا يتوفر إلا للوحي الإلهي الحكيم الذي ژ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ژ حكيم يصدر قوله عن حكمة... وحميد يستحق الحمد على الرشد والصلاح في الحال والمآل، أي يستحق الحمد على ما أنزل مما من شأنه هداية الناس إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وهذا هو طريق القيم الإلهية الهادية المرشدة، التي تحفظ العقل من الشطط، والقلب من الزيغ، والفطر من الانحراف.

وقد وعى التاريخ كل هذه القيم الصالحة والفاسدة، ووعى آثار كل منها على الأفراد والجماعات، وعلى العقول، وعلى النفوس والفطر، وأبرز في ذاكرته الأوعى والأنفع والأصلح الذي استقامت به حياة الأمم، كما أبرز الضار والفاسد الذي انهارت به في حياتها منظومة القيم، والعقل قادر على تمييز المتناقضات وفهم المتقابلات، وقادر على الموازنة بين القيم النافعة والضارة في ضوء معطيات الوحي الإلهي وإخباره بتاريخ الأفراد والأمم، والشعوب في إطار مبدأ «المسئولية والجزاء».

وقد أثار القرآن الكريم في الأمة عقلها ووجدانها، وحثها على تأمل مآلات الأمم السابقة وحملها مسئولية التفريط في منظومتها القيمية إزاء محاولة بني إسرائيل تزييف التاريخ، واغتيال ذاكرته، وتغييب الوعي الإنساني، واختزال قيم التاريخ وحقائقه ومشاهده في قيم آنَّيةٍ مغرضة قال الله تعالى: ژ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ژ

ڤ ڃ ڃ ڄ ڄ ڃ ڃ ڄ ڃ ڃ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ی ی ی □

□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ژ[1]، ژۈۈۇژ، وقال الله تعالى – عمن جعل الملائكة إناثاً انطلاقاً من الهوى المطلق وإخضاع الحقائق العلوية للتفسير القسري الزائف لتاريخ الاعتقاد قال تعالى: ژ **ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ی ی ی** □ □ □ □ □ □ □ ژ[2].

وقد حاجج القرآن الكريم هؤلاء وأولئك بما يلي:

1– نسبة العلم المطلق بحقائق الأشياء إلى الله تعالى وتعجيزهم عن الإحاطة بها.

2– إنكار الله تعالى على هؤلاء تفسير وقائع التاريخ وفهم قضاياه رجماً بالغيب.

3– جعل القرآن الكريم كتم الشهادة في القضايا قاطعة الدلالة من الله تعالى من أظلم الظلم.

وبهذا حَمَّل القرآن الكريم العقول والنفوس مسؤلية الإضلال بميزان الاعتدال العقدي والقيمي كما حَمَّلها مسئولية التفسير الخاطئ للتاريخ أو تحكم النزعات المغرضة في صياغته والشهادة عليه ژ **ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې** ژ[3].

ثالثاً: فقه الواقع الإنساني والكوني.

يعتبر فقه الواقع الإنساني والكوني بحقائقه ودلالاته محوراً فاعلاً في صياغة التاريخ بعينٍ بصيرةٍ، وهو من إحدى خصائص المنهج الاستردادي الهامة في تفسير المعارف الإنسانية في إطار فقه دلالات الأحداث التاريخية والوقائع الحياتية ومعرفة ظروف الظواهر الإنسانية وملابساتها.

---

(1) سورة البقرة: 135 – 141.
(2) سورة الزخرف: 19 – 22.
(3) يراجع في هذا المعنى: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د/وهبة بن مصطفى الزحيلي جـ 1 ص 331 – دار الفكر المعاصر – دمشق، ط: 2 1418هـ، وزهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة جـ 1 ص 432 – دار الفكر العربي – بدون تاريخ.

ولما كان فقه الواقع الكوني متعلق بفقه الواقع الإنساني من حيث فقه الظرف والمظروف ومعرفة العلاقات والوشائج البنائية والدلالية بينها أضيف فقه الأول: «فقه الواقع الكوني» إلى الثاني: «فقه الواقع الإنساني» على أنهما طرفا معادلة متفاعلان بقوة في فقه الواقع لما يلي:

1– إنهما يسهمان بفاعلية في فقه حركة التاريخ ومعرفة قوانينه الدقيقة وسننه الحكمية المشتقاة من الوحي الكريم المبارك.

2– أنهما يعملان على استبصار الواقع برؤية دقيقة واستشراف المستقبل برؤية حكيمة.

3– قوة العلاقة التأثيرية بينهما باعتبارهما طرفي معادلة متزنة في تفسير التاريخ.... في فقه الكائن والمكون، أو فقه الإنسان والكون، فالكون مؤثر بدلالات حقائقه في اعتقاد الإنسان، فهو معقل أسراره، والإنسان مؤثر فاعل في حقائق الكون، فهو كاشف دلالاتها، ومستبصر حكمها، وفقيه بَيِّناتَها، وربما كان هذا وذاك سر سر اقترانهما في كثير من آي القرآن الكريم، ومنها قول الله تعالى – في معرض إقامة الحجة على الخلق لاسيما المكذبين ومنكري البعث-: ژ **ڤ ڦ ڄ ڃ ڃ ڃ ڄ ڄ ڃ ڃ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ ں ں ڻ ڻ ڼ ڽ ۀ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۈ ۈ ۉ ۉ ۊ ۋ ۋ ۅ ۅ ۆ ې ې ۉ ى ى ى ي ي ئ ئ ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئى** ژ[1].

محاور فقه الواقع الإنساني والكوني:

هناك عدة محاور لفقه الواقع الإنساني والكوني يجب معرفتها لفهم هذه الخصيصة من خصائص المنهج الدعوي الاستردادي أجملها فيما يلي:

1– فقه الطبيعة الرسالية «فقه الوظيفة الإنسانية والكونية».

2– فقه السنن الإنسانية والكونية.

3– فقه المضامين الرسالية.

4– فقه المقاصد والغايات.

وسأوضح هذا بمشيئة الله تعالى فيما يلي:

أولاً: فقه الطبيعة الرسالية.

إن فقه واقع الإنسان مرتبط في الآيات البينات بفقه واقع الكون، والنسبة بين هذين النوعين من الفقه مطردة. فلا يخفى ما فيهما من معرفة دلالات التسخير

(1) سورة الواقعة: 57 – 74.

الكوني للإنسان واستفاده الإنسان بدلالات حقائق الكون الباهرة في رقيه الإيماني واستقامة نزوعه العقدي وسلوكه التعبدي... فقيم التسخير الإلهي ليست قيماً مادية وفقط، وإنما هي قيم مادية ومعنوية تجمع بين مظاهر الإنعام الإلهي وبين الرقي الروحي والقيمي للإنسان.

الطبيعة الرسالية:

إن الإنسان والكون مربوبان لله تعالى مخلوقان له، وأنهما مفطوران على حالة من التعبد والانصياع لإرادة الله تعالى القاهرة، ومما يدل على هذا قول الله تعالى: ژ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ژ[1]. وإن كان ظهور التعبد الكوني لله تعالى مخفي عن الإنسان يصعب عليه إدراكه لغياب فقه لغة الكون التعبدية. قال تعالى: ژ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ژ[2].

لكن ثمة فرقاً بين وظيفة الإنسان التعبدية وبين وظيفة الكون، فوظيفة الإنسان التعبدية وظيفة رسالية أي وظيفة طوعية اختيارية قائمة على التكليف، أي أنه قائمة على إرادة الإنسان الاختيارية وتحمل المسئولية والجزاء عن قيم الالتزام بالمنهج الإلهي، أما وظيفة الكون التعبدية قائمة على التسخير المطلق للكون بما فيه من صور وعناصر ومظاهر مادية، ولعلك تدرك معنى الفرق بين دلالة التسخير ودلالة التخيير، فهما مختلفتان من حيث الطبيعة الدلالية متفقتان من حيث المقاصد الغائية، أما اختلافهما من حيث الطبيعة الدلالية فيتمثل في أن ما تفطر عليه القوى العاقلة أو الإنسان الراشد من عقل وقدرات إدراكية ومواهب نفسية وجسمية غير ما تفطر عليه القوى الكونية المسخرة، ففطرتها فيما يبدو فطرة تسخيرية غير عاقلة أو مدركة منقادة انقياداً قهرياً قسرياً لا خيار ولا إرادة لها فيه.

وأنّ اتفاقهما من حيث المقاصد الغائية فلأنهما تؤديان معا إلى وحدة تعبدية انسجامية.... تجعل الإنسان والكون.. المدرك واللامدرك... العاقل واللاعاقل... في حالة انقيادية – شعورية كانت أو لا شعورية – لإرادة الله تعالى وحكمته البالغة ألا يعبد في كونه غيره.

وتتفق وظيفة الملائكة التعبدية مع وظيفة الكون من حيث كونها وظيفة تعبدية قائمة على التسخير المحض الذي تتلاشى فيه الإرادات ويتوارى فيه

---

(1) سورة النحل: 48 – 50.
(2) سورة الإسراء: 44، 45.

الاختيار، وهي وظيفة تختلف – أيضاً – مع وظيفة الإنسان التعبدية القائمة على الاختيار المحض والإرادة الخالصة.. وإن كانت وظيفة الملائكة في مبناها تختلف عن وظيفة الكون من حيث كونها قائمة على التعبد المدرك والواعي؛ لأنها قوى مدركة واعية؛ فإنها في إدراكها تختلف عن إدراك الإنسان القائم على الحواس، فإدراك الملائكة إلهام مطلق لا كسب فيه، أما إدراك الإنسان فقائم على كسب الحواس وقد يرد فيه الإلهام الإلهي من باب التوفيق الحكيم إلى عبادة الله تعالى الواحد، قال تعالى: ژ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ژ[1].

وأما دليل الوظيفة الملائكية التسخيرية فمستفاد من قول الله تعالى حكاية عن ملائكته أخبرهم بجعله آدم خليفة له تعالى في أرضه: ژٱٻٻٻٻپپپپڀڀڀڀٺٺٺٺٿٿٿٿٹٹٹٹڤڤڤڤژ[2].

أما دلالات وظيفة الكون التعبدية التسخيرية فمستقاة من قول الله تعالى: ژٱٻٻٻٻپپپپڀڀڀڀٺٺٺٺٿٿٿٿٹٹٹٹڤڤڤڤژ[3]، وأما دلالة وظيفة الإنسان التعبدية الطوعية ودلالة وظيفة الملائكة التعبدية القسرية القهرية فمستقاة من قوله تعالى: ژڤڤڤڤڦڦڦڦڄڄڄڄڃڃڃڃچچچچژ[4]، ومن قوله تعالى: ژےۓۓڭڭڭڭۇژ[5]، وقوله تعالى: ژڈڈڈڈژژڑڑکککگژ[6].

هذا ويعد تسخير الكون للإنسان من سابغ نعم الله تعالى وعظيم فضله عليه، قال تعالى: ژئۇئۇئۆئۆئۈئۈئېئېئىئىئيبجبحبخبمبىبيتجتحتختمتىتيثجثمثىثيجحژ[7].

والكون مستودع الآيات البينات التي وضعها الله تعالى للإنسان تلهمه رشده إذا تأمل في دلالات قدرة الله تعالى فيها، وتذكره بهيمنة الله تعالى وقاهريته وجبروته وكبريائه إذا ما فرط في جنب الله تعالى. فهي من دلالات التصريف والتسيير والتيسير والتدبير الحكيم من الله تعالى العلي القدير.. وإن شئت فقل: دلالات الجلال والجمال.

فقه طبيعة الإنسان:

---

(1) سورة محمد: 17.
(2) سورة البقرة: 30.
(3) سورة الرعد: 13.
(4) سورة الرعد: 15.
(5) سورة الأنبياء: 79.
(6) سورة سبأ: 10
(7) سورة الجاثية: 12، 13.

أولاً: «محـور التكوين»:

أ– البنية التكوينية المادية:

يعتبر فقه طبيعة الإنسان التكوينية واستقراء أحوالها وآلاتها عبر التاريخ من لوازم المنهج الاستردادي الموضوعية التي تفسر للإنسان قيم التاريخ والعنصر الفاعل فيه، فقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم عن خلق الإنسان خلقا خاصا مستقلا عن غيره من المخلوقات ولم يتولد عن أي منها ولم يمثل صورة أو مرحلة من صور ومراحل التطور المزعومة في تفسير نشأة الحياة والخلق التكويني للإنسان والكون، وقد كان لإخبار القرآن عن ذلك أساليب متنوعة ومختلفة، فتارة يتحدث عن أصل المادة التي خلق منها آدم (υ)، وتارة أخرى يتحدث – إلى جانب ذلك – عن وسائل الإدراك المعرفية، وتارة ثالثة يتحدث عن المآل والمصير، ورابعة يتحدث عن التقدير والتدبير والتصريف والتسيير والتسخير الكوني في معرض حديثه عن تقدير رزق الإنسان وما أعده الله تعالى له والنعيم الدنيوي بل والأخروي، والقرآن الكريم في كل ذلك يركز على علة الخلق ومقاصده والتي تتلخص في رسالة الإنسان في عبادة الله تعالى وإعمار الكون لتحقيق مفهوم الخلافة عن الله تعالى في كونه.

ومن أدلة ذلك في القرآن الكريم ما يلي:

1– قول الله تعالى: ژ ٱ ب ب ب پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئى ی ی ی ی □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ز[1].

2– وقول الله تعالى: ژ ے ۓ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئى ی ی ی ی □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ز

---

(1) سورة البقرة: 30 – 37.

ﭐﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﶒﶓﶔﶕﶖﶗﶘﶙﶚﶛﶜﶝﶞﶟﶠﶡﶢﶣﶤﶥﶦﶧﶨﶩﶪﶫﶬﶭﶮﶯﶰﶱﶲﶳﶴﶵﶶﶷﶸﶹﶺﶻﶼﶽﶾﶿﷀﷁﷂﷃﷄﷅﷆﷇ﷈﷉﷊﷋﷌﷍﷎﷏ﷰﷱﷲﷳﷴﷵﷶﷷﷸﷹﷺﷻ﴾ [1].

3– ومنها قوله تعالى: ﴿ﭐﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﶒﶓﶔﶕﶖﶗﶘﶙﶚﶛﶜﶝﶞﶟﶠﶡﶢﶣﶤﶥﶦﶧﶨﶩﶪﶫﶬﶭﶮﶯﶰﶱﶲﶳﶴﶵﶶﶷﶸﶹﶺﶻﶼﶽﶾﶿﷀﷁﷂﷃﷄﷅﷆﷇ﷈﷉﷊﷋﷌﷍﷎﷏ﷰﷱﷲﷳﷴﷵﷶﷷﷸﷹﷺﷻ﴾ [2].

4– ومنها قوله تعالى: ﴿ﭐﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﶒﶓﶔﶕﶖﶗﶘﶙﶚﶛﶜﶝﶞﶟﶠﶡﶢﶣﶤﶥﶦﶧﶨﶩﶪﶫﶬﶭﶮﶯﶰﶱﶲﶳﶴﶵﶶﶷﶸﶹﶺﶻﶼﶽﶾﶿﷀﷁﷂﷃﷄﷅﷆﷇ﷈﷉﷊﷋﷌﷍﷎﷏ﷰﷱﷲﷳﷴﷵﷶﷷﷸﷹﷺﷻ﴾ [3].

5– ومنها قوله تعالى: ﴿ﭐﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﶒﶓﶔﶕﶖﶗﶘﶙﶚﶛﶜﶝﶞﶟﶠﶡﶢﶣﶤﶥﶦﶧﶨﶩﶪﶫﶬﶭﶮﶯﶰﶱﶲﶳﶴﶵﶶﶷﶸﶹﶺﶻﶼﶽﶾﶿﷀﷁﷂﷃﷄﷅﷆﷇ﷈﷉﷊﷋﷌﷍﷎﷏ﷰﷱﷲﷳﷴﷵﷶﷷﷸﷹﷺﷻ﴾ [4].

هذه مساقات قضية خلق الإنسان في القرآن الكريم وبيان مقاصدها ودلالاتها. وفي إطار المقارنات الدلالية وتحليلها واستقراء صورها وعناصرها تتضح أهمية الاستقراء في فهم طبيعة الواقع الإنساني من حيث النشأة والمآل والمصير، وكبرى هذه القضايا قضية «الإدراك» إدراك الذات المخلوقة والذات العلية الخالقة والرسالة التعبدية للإنسان في الحياة وإدراك صور النعيم الدنيوي والأخروي.

إن هذا المنهج الاستردادي في فهم الكون والعنصر الفاعل فيه، واستشراف الغايات الكبرى، والمآلات العظمى، يمثل استيعاباً قوياً لحركة التاريخ، وقبسا من عبق الإنسانية الراشدة التي تستلهم رشدها وتستمد قواها وعزائمها من مقررات الوحي الإلهي الكريم ودلالاته القاهرة.

ويتبين من خلال هذا المنهج التاريخي عظمة الحديث وأهميته في تفعيل حركة التاريخ والترفع بها عن السرد الوقائعي الجاف، وتفكيك جمود الروايات التاريخية التي ترتبط بالإنسان والأرض أكثر مما ترتبط بالله تعالى وبالسماء، وتوازن بين عناصر المادة والطموح الروحي المجرد إلى السمو والنبل، وتحرر

(1) سورة الأعراف: 10 – 25.
(2) سورة الحجر: 26 – 40.
(3) سورة الحج: 5.
(4) سورة ص: 71 – 78.

الحدث التاريخي حول الإنسان كمحور فاعل في الكون من مآزق التفسير المادي للتاريخ وفق مبادئ فلسفية تخلص للمادة تارة أو الروحية المجردة تارة أخرى.

وبات واضحاً أن من كبرى اليقينيات التاريخية فهم طبيعة الإنسان من خلال إنباء الوحي الإلهي الصادق، وأن دلالات الوحي في هذه القضية أصدق إنباءا من دلالات الفعل المجرد، وأن العقل المجرد يعجز – في غياب الوحي الإلهي – عن إدراك نشأة الإنسان وتفسيرها وتفهم مقاصدها ووظيفتها التعبدية والرسالية.

ب– البنى التكوينية التزوجية:

لا ريب أن مقررات العقل السليم تتفق مع مقررات الوحي الحكيم في إدراكه للإنسان ككيان ثنائي التكوين، أي أن الإنسان مكون من امتزاج ثنائي بين الجسد والروح.. يمثل الجسد من هذا الامتزاج العنصر المادي وتمثل الروح فيه العنصر الروحي «المعنوي»، كما أنه مكون من امتزاج ثنائي آخر بين العقل والقلب.. يمثل العقل فيه التفكير أو الإدراك النظري والعملي المجرد وفق قياسات عقلية تعتمد على وسائل إدراكية حسية، ويمثل القلب فيه الإدراك الإيماني الفطري المجرد والذي من مظاهره حصول خشية الله تعالى في القلب والخوف منه، ولا يمكن فصل أثر إدراك أحدهما على الآخر، فهما معاً يؤديان إلى حصول اليقين الإيماني للإنسان في الكون.

ولما كان الأمر كذلك فلم يكن من الممكن والمعقول تصور الإنسان جسدا بدون روح أو روحاً بدون جسد، كما لم يكن من الممكن تصوره قلبا بدون عقل ولا عقلا بدو قلب، ولكل من هذين الثنائين متطلباته، وهي وإن اختلفت وتباينت فإنها تمثل نوعاً في وجدة لا تناقضاً إنقسامياً يؤدي إلى فهم أحد طرفي هذا الامتزاج الثنائي بمعزل عن الآخر، وتتطابق متطلبات الروح والقلب بينما تتباين مع متطلبات العقل والجسد في حين تتباين متطلبات الأخيرين – العقل والجسد – كل منها عن الأخرى.

وأيما كان فإن هذه المتطلبات تبين حاجة الإنسان إلى التفكير الذي يحصل به اليقين العقلي والقلبي لإثارة العقل للتفكير وإثارة الوجدان بالامتثال، كما تبين حاجة الجسد المادية إلى الطعام والشراب وحاجة الروح إلى إشباع نهمها الروحي والوجداني ليتمكنا معاً من استغراق الإنسان في نزوعه التعبدي وممارسة شعائره الإيمانية. ومحاولة فصل هذه البنى التكوينية للإنسان بعضها عن بعض لا يعدو كونه محض عبث وعنت وإغراب في تصور صلة الإنسان بالله تعالى.

ومن دلالات هذه البنى التكوينية وأهميتها لفهم طبيعة الإنسان في القرآن الكريم ما يلي:

1– قول الله تعالى: ژ ﮕﮖﮗ ﮘﮙﮚﮛﮜﮝ ﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫ ژ[1].

2 – قول الله تعالى: ژ ﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳ
ﯴ□□□□□□□ ژ[2].

3– قول الله تعالى: ژ ﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰ□□□□□ ژ[3].

4– قول الله تعالى: ژ ﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏ ﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚ
ﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥ
ﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶ
ﭷﭸﭹ ژ[4].

وهذه الآيات وتلك تعطي دلالات قيم التكوين الثنائي للإنسان والتوسط والاعتدال في تلبية احتياجات كل مقابل من هذه الثنائيات لمقابله ليتحقق للإنسان رشده، فلا يجنح في تلبية احتياجات القلب إلى التقصير في تلبية احتياجات العقل ولا العكس، كما لا يجنح في تلبية احتياجات الروح إلى التقصير في تلبية متطلبات الجسد ولا العكس.

ولا ريب أن محاولات التجزئة أو التمحور حول أحد عناصر التركيب البنائي التكويني الثنائي للإنسان دون الآخر إخلال بمعدلات التوازن التكويني والبنائي للإنسان وتعطيل لشرع الله تعالى الحكيم، وإفساد لتصور علاقة المخلوق بالخالق، والعابد بالمعبود. وإخلال بضوابط النظم الدينية التي تبين معالم الهدى والضلال والرشد والغي، والاستقامة والانحراف، والاعتدال والغلو، والقصد والتفريط، وإن شئت فقل إفساد لمسيرة التدين الصحيح وممارسات التعبد الحقة لله تعالى رب العالمين. وهذا هو سبب إخفاقات النظم الوضعية في القديم والحديث في ضبط حياة الإنسان.. فقد اختزلت قيم الروح في قيم المادة واختزلت مصير الإنسان ومآله في الدنيا، كما اختزلت قيم الوحي الإلهي الحكيم في قيم العقل المجرد، فمنحت العقل سلطة مطلقة على النص، كما منحت الجسد سلطة مطلقة على الروح.

ولا تعجز القراءات التاريخية وتحليل الوقائع والأحداث والتجارب الإنسانية عبر العصور في الدراسات التاريخية عن إدراك خطورة هذه التجزئات للبنى التكوينية الثنائية للإنسان، كما لا تعجز عن إدراك خطورة ظاهرة التمحور حول

(1) سورة الشورى: 20.
(2) سورة القصص: 77.
(3) سورة الملك: 23.
(4) سورة الحج: 27 - 32.

هذه المكونات الثنائية له دون الاكتراث بمكوناته الأخرى لاسيما في العصر الحديث.. وليس من المستبعد أن تنفجر في العالم ثورات دينية عارمة ضد الحداثة ومعطياتها والتي تمخضت عن مناظير علمانية أو إلحادية فأغرقت الجسد في متع المادة، وغيبت الروح في حياة الإنسان، والدين عن الحياة، وأمعنت في الإغراب بالإنسان ضد فطرته السليمة التي تدفعه دفعا إلى إرواء نهمه الديني ومتطلباته التعبدية وحقه في ضبط علاقته بالله تعالى.

وما انفجار ثورات الربيع العربي في دول إسلامية كتونس ومصر واليمن وليبيا وسورية عنا ببعيد.. إنها ثورات وجدت الاتجاهات الدينية فيها تربة خصبة للنمو ووجدت من الشعوب تعاطفاً دينياً قوياً يرغب في تطهير البلاد من الظلم والطغيان والقهر والفساد، ويطمح إلى التخلص من أطروحات العلمنة ومحاولات الإلحاديين تغييب الدين وتعطيل شرع الله الحكيم أو تغييبه عن إرواء متطلبات الإنسان وتطلعاته الدينية.

بيد أن نجاح هذه الثورات مرهون بتوازن أطروحاتها وبتجرد نياتها وباكتساب خبرات العمل الإداري والفقه السياسي من وقائع وأحداث السيرة النبوية الراشدة والفهم الدقيق لمعطيات القرآن الكريم والسنة الشريفة، وممارسات صحابة رسول الله محمد (^) وسير التابعين وتابعيهم، في إطار مراعات القضايا المصلحية الكبرى، ومنهجية التدرج التشريعي ومراعاة فقه الأولويات والمقاصد العامة والكلية للإسلام.

ثانياً: فقه السنن الإنسانية والكونية.

يعتبر «فقه السنن الإنسانية والكونية» إحدى أهم خصائص منهج الدعوة الاسترادادي إلى الله تعالى، ذلك أنه يدفع الإنسان إلى قبس من الماضي البعيد أو القريب بهدف فقه وتدبر واقعه الآنيَّ واستشراف مستقبله القريب والبعيد في إطار الاستنتاجات التاريخية واستبصار الماضي والحاضر والمستقبل في عبق فقه السنن الإلهية الشاخصة والكائنة بين جنبات النفس الإنسانية وطواياها وخفاياها، وتلك السنن المرئية الماثلة في ثنايا الزمان وشخوصات المكان، لتدفع الإنسان إلى مزيد من فقه العبر والعظات، وفقه حركة الإنسان والكون، وفقه معاني ودلالات التدبر الإلهي للإنسان والكون، في إطار الخلق والتكوين، والتيسير والتسيير، والتبصير، فيعرف الله تعالى حق معرفته ويتعبده حق عبادته، قدر اجتهاده في خلواته وجلواته.

ولا غرو إذا قلنا إن هذه الخصيصة تمثل للداعي والمدعو معا منظارا فائق القدرة لاستشراف القيم المعرفية الدعوية التاريخية، وفقه الثوابت والمتغيرات في الإنسان والكون، ومعرفة إمكانات تهذيبها، وشحذ الهمم للاستفادة منها في إرواء

غرائزهما الإنسانية ومواهبهما الإلهية وتوجيه طاقاتهما وقدراتهما لتمحيص مسيرة تعبدهما ومعرفة المسالك الراشدة لإنقاذ الإنسانية.
وسوف أركز في هذه الدراسة على معرفة السنن الإنسانية ثم أتبعها بسنن الله تعالى الكونية.

أولاً: سنن الله تعالى الإنسانية.

من هذه السنن ما يلي:
1– سنة الإيجاد والإعدام الإلهية.
2– العناية الربانية.
3– الاجتماع البشري.
أ– حب المنشأ.
ب– التنافس والغبطة.
ج– التمايز والتغايظ والصراع
د- التداول والتدافع التمكين.

وقبل أن نبدأ في بيان مفاهيم هذه السنن ودلالاتها أوضح مفهوم السنة والقيود المستنبطة من آي القرآن الكريم والسنة الشريفة لتحقق الوصف بالسنية. وانسجام ذلك مع دلالات العقول الصحيحة.

مفهوم السنة:

للسنة دلالات لغوية ومفاهيم اصطلاحية محددة، والأخيرة تمثل أمشاجاً في رحم الاشتقاق اللغوي يربط بينهما حبل دلالاي سري يصل مفاهيم الاصطلاح بالدلالات اللغوية الأمم، وتتوقف حياة هذه الأمشاج الاصطلاحية على حسن الفهم ودقة الفقه وحكمة التصورات والرؤى التأصيلية والتنظيرية، وكما لا يتصور جنين بلا حاضنة فكذلك لا يتصور مفهوم اصطلاحي بلا حاضنة، على أن أصل المادة الاشتقاقية يمثل بقوة هذه الحاضنة، ويدعم حسن الاستدلال صلاحيتها للوجود. وفيما يلي أوضح ذلك:

أولاً: السنة في دلالات الاشتقاق اللغوي:

ثمة دلالات اشتقاقية عدة للسنة في الاشتقاق اللغوي منها ما يتعلق بموضوع الدراسة ويعتبر أصلاً للبنى الاصطلاحية للمصطلح، ومنها ما يتعلق بدلالات مغايرة إذ أن دلالات الاشتقاق اللغوي أوسع من هذه البنى الاصطلاحية.

فقد وردت لفظة السنة في اللغة في مادة (س ن ن) من منظور توافقي تأطيري بين الاشتقاق والاصطلاح بمعنى: «سنة الله: أحكامه وأمره ونهيه، وسنها الله: بينها. وسن الله سنة أي بين طريقا قويما قال الله تعالى: ﴿ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽﴾ [الأحزاب: 62]، وسنها الله: بينها. وسن الله سنة أي بين طريقا قويما قال الله تعالى: ﴿ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽﴾ [الأحزاب: 62]

ﮯﯓﮊ . والسنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة، وفي التنزيل العزيز: ﮋ ﭢﭣﭤ ﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﮊ. قال الزجاج: سنة الأولين أنهم عاينوا العذاب. وسننتها سناً واستننتها سرتها وسننت لكم سنة فاتبعوها، ويجوز أن يكون من سننت الإبل إذا أحسنت رعيتها والقيام عليها»[1].

ثانياً: في الاصطلاح:

من خلال ما سبق نستطيع أن نحدد صياغة مفهوم السنة اصطلاحياً فنقول: السنة: الأصل التكويني في الإنسان والكون بمقتضى إرادة الله تعالى وارتضائه بحيث لا يتخلف زماناً ولا مكاناً.

ومن ثم فلابد أن يتوفر للشيء ثلاثة أمور حتى يصدق وصفه بالسنية، وهي:

1– أن يريده الله تعالى.

2– أن يرتضيه الله تعالى.

3– ألا يتخلف وقوعه في إطار الزمان ولا في حيز المكان.

ومثال ذلك الأصل الفطري في التكوين ومفاده أن الإنسان والكون تجمعهما وحدة دلالية فطرية تعبدية تتمثل في التوحيد الإلهي بمقتضى التكوين الفطري التعبدي: ﮋ ﯖﯗﯘ ﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﮊ[2]، ﮋ ﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮊ[3]، وما شذ عن ذلك من اختلاف الناس في العقيدة لا يعد سنة إلهية وموهم من ظنه سنة لأن ذلك يصطدم بقول الله تعالى: ﮋ ﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊ[4]، وفرق بين اختلاف الناس في العقيدة واختلافهم في الألسنة والألوان؛ لأن الأخير تتوفر فيه القيود الثلاثة للقول بسنيته بخلاف الأول، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﮋ ﮡﮢﮣ ﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮊ[5]، وليس من بينها العقيدة، بل ليس من المعقول – فضلاً عن أن يقبله المنصوص – أن يكون الاختلاف في العقيدة آية من آيات الله في الخلق؛ لأنه شذوذ عن الأصل الفطري بفعل الشيطان: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين جاءتهم فاجتالتهم عن دينهم»[6].

---

(1) ابن منظور. لسان العرب جـ 13 ص 225 دار صادر – بيروت – الطبعة الثالثة 1414هـ.

(2) سورة الروم: 30.

(3) سورة الإسراء: 44.

(4) سورة الزمر: 7.

(5) سورة الروم: 22.

(6) صحيح مسلم، تحقيق/محمد فؤاد عبد الباقي، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا جـ 2197/4 حديث رقم (2865) دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون تاريخ.

فالسنة لابد أن يريدها الله تعالى ويرتضيها لخلقه، ولا تتخلف عنهم زمانا ولا مكانا، والكفر وإن أراد الله تعالى وقوعه لأن شيئا لا يقع في الكون إلا بإرادته وإذنه فإن الله تعالى لا يرتضيه لعباده، ولم يثبت أن أحد ابني آدم كفر، وإن ثبت قتل أحدهما أخاه(1)، فلا يعد القتل كفراً، وإن عد من أكبر الكبائر، فسقط بذلك القول بسنية الاختلاف في العقيدة. وقد تظاهرت على ذلك دلالات النص والعقل والواقع.

ومن الآيات التي تؤكد القيود الثلاثة للوصف بسنية الشيء قول الله تعالى: ژ ﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫژ (2) فقد أرادها الله تعالى وارتضاها ولم تتخلف عن أمة من الأمم، وهذه السنة الرسالية من سنن الله تعالى في الرسالات الإلهية إلى سائر الأمم.

وإليك بيان هذه السنن:

سنتا الإيجاد والإعدام الإلهيتين:

من سنن الله تعالى الإنسانية والكونية «سنتا الإيجاد والإعدام» الإلهيتين للإنسان والكون، وهما أصل وجود المخلوقات وفنائها، وأصل نشأة الكون والحياة وزوالهما، فلا شيء في الكون يوجد أو يفنى تعلقت به الإرادة الإلهية وجودا وفناءا، وهما من اختصاصات الذات العلية، إذ لا منازع له سبحانه وتعالى في واحدة منهما ولا شريك له تعالى في إرادة إحداثه، ولا ند له يمنع تحقيق مراده، وهاتان السنتان تحققان «طلاقة القدرة الإلهية» في الفعل والإرادة إيجاداً وإعداماً، وإبقاءاً وإفناءاً، قال تعالى: ژ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧژ (3)، وقال تعالى: ژ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃژ (4)، وقال تعالى: ژ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ژ (5)، وقال تعالى في إيجاد النار كمصدر للوقود والطاقة للإنسان ژ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ژ (6) وقال تعالى في طلاقة إرادته وتصرفه في استحالة الطبائع بعد الإيجاد ژ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ژ (7).

إنها إذن دلالات قاطعة على قاهرية الله تعالى، ومطلق إرادته ومشيئته، فقد

---

(1) قال تعالى: ژ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ژ [المائدة: 30].
(2) سورة الإسراء: 77.
(3) سورة الأنبياء: 22.
(4) سورة الواقعة: 59.
(5) سورة الواقعة: 64.
(6) سورة الواقعة: 72.
(7) سورة الواقعة: 69، 70.

قهر الله تعالى العدم فأوجد المخلوقات، وقهر الله تعالى الوجود فأعدم المخلوقات، وأبدع تعالى خلقه فأحال طبائع الأشياء على غير مثال سابق ﮋ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﮊ (1)، وقهر الله تعالى البقاء فأفنى، وقهر الفناء فبعث بعض مخلوقاته بذات الخصائص ونفس الصفات، وأخذ على نفسه العهد بإفناء كل العوالم والمخلوقات تحقيقاً لمقتضى بقائه تعالى وديمومته، قال تعالى: ﮋ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮊ (2)، وقال تعالى: ﮋ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ □ □ □ □ □ □ □ ﮊ (3)، وقال تعالى: ﮋ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮊ (4)

إن حركة التاريخ بعناصرها الثلاثة: الحدث والزمان والمكان، شهدت في الماضي مظاهر هذه القدرة الإلهية في الإيجاد والإعدام، ولا تزال تشهدها، وستظل تستوعب في المستقبل كثيرا من هذه المظاهر العلية، قال تعالى: ﮋ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ □ □ □ □ ﮊ (5) حتى يقول الله تعالى يوم القيامة: ﮋ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﮊ فلا يجيب عليه مما خلق إذ قد طواهم الفناء ولف الصمت الزمان والمكان، فيجيب الله تعالى على ذاته بمقتضى جبروته وقاهريته: ﮋ ﯽ ﯾ ﯿ ﮊ (6).

إن مناط هاتين السنتين الإلهيتين في الإيجاد والإعدام أو الإفناء قائم على صفة «القدرة» لله تعالى، وللقدرة العلية مناط يحققها في عقولنا وأفئدتنا وتدركه حواسنا في ذواتنا في الكون من حولنا، وفي تصاريف حياتنا، ومظاهر غنانا وفقرنا، وضعفنا وقوتنا، وجهلنا وعلمنا، ويتمثل هذا المناط في إدراك حقيقة كنه الصفات الإلهية العالية المتعلقة بالتكوين والإفناء ولولا إدراكنا وفقهنا لها ما استطعنا فهم مراد حكمة الله تعالى في الخلق والتصريف والتيسير والتسيير.

ومن هذه الصفات العلية صفة «العلم» و«الحكمة» و«الإرادة» و«اللطف» و«الحلم» و«العزة» و«الجبروت» فتصور القدرة الإلهية بمعزل عن هذه

(1) سورة الأنبياء: 69.
(2) سورة القصص: 88.
(3) سورة البقرة: 259.
(4) سورة القيامة: 1 – 4.
(5) سورة فصلت: 52
(6) سورة غافر: 16.

الصفات العلية غير ممكن، وقد يوقع الإنسان في متاهات الاعتقاد الفاسد فيفسر الفعل الإلهي وفق قدرته المحدودة... المتناهية ضعفا.. المتضائلة حداً وكماً، ويخضع الفعل الإلهي الحكيم لقياساته البشرية فيفسد تصوره، وهذا ما لا يليق بكمالات الله تعالى اللامتناهية.

أضف إلى هذا أن تصور قدرة الله تعالى مجردة من مفاهيم الحكمة الإلهية والإرادة العلية لا يهدي العقل والفؤاد إلى فهم حقيقة القدرة الإلهية، لأنه لا يمكن تصور قدرة بلا إرادة، ولا إرادة بلا حكمة، كما لا يمكن تصور شيء من ذلك كله بدون علم، فضلاً عن تصور إحدى هذه الصفات الإلهية دون الأخرى.

والله تعالى قد يجري سنته في كونه لطفاً بخلقه وحلماً بهم، وقد يعطلها ويجريها على غير طبيعتها بمحض عزته تعالى وجبروته، هيمنة على كونه، وتذكيرا لخلقه، أو إنذاراً للضالين المكذبين المعاندين منهم، وتبشيراً للموحدين المؤمنين الصالحين من عبادة المتقين.. وقد يكون خرق الله تعالى سننه الإلهية التكوينية من باب الحلم واللطف بعباده ليهديهم إلى صحيح الفكر الذي يوصلهم إلى صحيح الاعتقاد. واستقامة الإيمان لتحصل لهم السكينة والطمأنينة وإيمان الإنسان بسنن الله تعالى وفقهها وفق هذين المسلكين في التفكير والتدبر يهديه إلى إدراك حكمة الله تعالى في الخلق والتكوين والتصريف، ويوضح هذا سائر معجزات الأنبياء، وما نسميه بالكوارث الطبيعية من الزلازل والبراكين والعواصف والأعاصير، فكل مظهر منها يحمل في طياته دلالات الإنذار والبشارة، وتذكير الناس بكبرياء الله تعالى وجبروته وعزته وبلطفه تعالى بعباده وحلمه تعالى بهم. ونستطيع في ضوء فهم هذا الطوفان في قصة نبي الله نوح (υ)، والنار التي ألقي فيها إبراهيم (υ)، وإهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين من الغرق في قصة موسى (υ)، وكذا نستطيع فهو سائر المعجزات الإلهية والخوارق العلوية في إطار صفات الجلال والجمال لله تعالى رب العالمين.

من أجل ذلك يلفت الله تعالى العقول في سورة القيامة إلى فهم حقيقة القدرة الإلهية وتحرير مناطها وفقه الصفات اللازمة في إدراكها، إذ يقول الله تعالى: ژ ژڑڑکککگگگگپپڀڀڀڀٺٺٿٿٹٹٹٹەەہہھھھھےےۓۓڭڭڭڭۇۇۆۆۈۈۇٴۋۋۅۅۉۉېېىىئائائەەژ [1]، إذ قال تعالى: ژگگژ ولم يقل: «بلى عالمين»، ولا «بلى مريدين» لأن القدرة تقتضي بالضرورة الإرادة والعلم وهما من متعلقات القدرة وليس العكس.

ولا يتحقق الفقه الكامل لدلالات هذه الآيات ومراد الله تعالى مما أودعه في

(1) سورة القيامة: 1 – 13.

مساقاتها من آيات بينات، وحجج قاطعة تبهر العقول ببيانات معالم التدبير الإلهي الحكيم في تصريف كونه وتيسير سننه إقامة وخرقاً.. أجراءاً وتعطيلاً.. وبدون هذا الفقه لا يستقيم إدراكنا لدلالات القدرة الإلهية ومظاهرها في الكون والعقل والنفس. فمن كان هذا شأنه لا ينازع في إيجاد ولا إعدام، ولا في إبقاء أو إفناء، وهذا ما يحقق فهم دلالات قول الله تعالى: ژ**.... ئوئۇئۇئۆئۆئۈئۈئېئېئىئىئىئىئى**ژ[1].

(1) سورة الروم: 40.

القياسات العقلية وفهم سنتي «الإيجاد» و«الإعدام».

ثمة صور من القياسات العقلية تعيننا على فهم سنتي «الإيجاد و«الإعدام» أو «الإبقاء» و«الإفناء» بعد الإيجاد. ومن هذه الصور ما يلي:

أولاً: قياسات العقول الممكنة تصورا وتدبرا وتنقسم إلى قسمين:

أ– قياس المتماثلات.

ب– قياس المتقابلات.

وأعني بقياس المتماثلات: القياسات التي تشترك فيها علل القياس الواحدة بأن تستقر في العقول السليمة وجوه مماثلتها لبعضها في صور التماثل في الوجوه، والتسوية في التصور والتصديق أو في بناء المقدمات واستنتاج النتائج منها، ومن أمثلتها ما يلي: قياس القدرة على الإيجاد بالقدرة على الإعدام، والجامع بينهما التسوية في إرادة الفعل، وبالتالي فإن العاجز عن الإيجاد لا يمكن أن يتصور له قدرة على الإعدام، ولا يستساغ في العقول السليمة عكس ذلك القياس، لأن إجراءه غير واقعي – أو بالأحرى – غير موضوعي وبالتالي فلا يمكن أن يؤدي إلى نتائج موضوعية واقعية تقبلها العقول وتذعن لها الأنفس وتنقاد لها وتدين.

وأعني بقياس المتقابلات قياسات المتقابلات المعنوية، أي قياس النقيض بنقيضه لعلة جامعة بينها تستقر في العقول وتنصاع لها النفوس، وتسلم لها الحواس ومنها: قياس وجود الظلمة بوجود النور وقياس إمكانية «الانهيار الكوني» بـ «الاتزان الكوني» التي أقرت به العقول وشاهدت الحواس دلالاته، وقياس سلب خاصية الإحراق من النار على إلزام النار خاصية الإحراق.. ومن دلالاتها أن القادر على المنح والإكساب قادر على السلب والتعطيل، ووجه التماثل في كل من هذه المتقابلات هو التسوية في الفعل والاختلاف في الصفة، فصفاتها متقابلة وإمكانية ورود الفعل فيها ممكنة ومدار التشريك في الحكم هنا هو الإمكان وليس الصفة، أي إمكان تغيير المكسبات وتغاير الأحوال وتوارد الإمكان بالإيجاب والسلب.

ثانياً: القياسات العقلية الفاسدة .

وأعني بها قياسات الصفات والأفعال المتقابلة والتسوية بينها في العلة، كقياس الظلمة بالنور والحياة بالموت، وقياس الأحياء بالأموات وقياس الظل بالحرور، وقياس من يسمع بمن لم يسمع وهذا قياس فاسد ووجه فساده أن علة التشريك والتسوية مستحيلة عقلاً. ومثاله أيضاً قياس الاعوجاج بالاستقامة وأفعال الكفار بأفعال المؤمنين.

وهذا القياس يفسد الرسالات الإلهية ويؤدي بأصحابه إلى الانحراف عن شرعة الله تعالى عن طريق الخلط والتلبيس والظن والخرص واتباع الهوى. وقد أورد الله تعالى هذا القياس بقوله تعالى: ﮋﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋ[1].

وقد يرد في أذهان البعض اعتراضاً بأن هذا القياس كسابقه (قياس المتماثلات) ومع هذا وردت النتائج مختلفة من حيث إن السابق ممكن ومقبول عقلاً وهذا مستحيل تصوره.

ويُدرأ هذا الاعتراض بأن القياس في الصورة السابقة قياس في العلة المشتركة وهي علة الإمكان، أما القياس في هذه الصورة فهو قياس علة التسوية بين الصفات المتناقضة وهذا مستحيل عقلاً، غير وارد في الشرع الحكيم، فالقياس السابق يؤدي إلى فهم إدارة الفعل الإلهي الحكيم من حيث طلاقة القدرة والتصرف في الإيجاد والعدم – وبوجه عام – طلاقة القدرة والتصرف في الإرادة وعدم الإرادة، أما القياس الثاني فيفسد هذا الفقه الدقيق لمرادات الله تعالى وحكمته في إيراد الأشياء والأعراض وجوداً وعدماً.

وهذا القياس الفاسد هو الذي وضع أهل الباطل إلى إفساد اعتقادهم في ادعائهم إلها غير الله تعالى لعدم وجود علة جامعة تمكن من إجراء هذا القياس، وهذا تقرير لأصل حق في الاعتقاد يتمثل في قول الله تعالى: ﮋﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊ[2]، وقد رد الله تعالى هذا القياس عليهم لعدم إمكانية وروده عقلاً فقال تعالى: ﮋﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊ[3]، فأي قياس يريدون!! وأي حكم يزعمون!! وأي اعتقاد يعتقدون!! وهيهات أن يوصلهم هذا القياس الفاسد إلى إثبات ما يريدون أو يعتنقون.

ولعلنا نستطيع في ضوء ما سبق أن نستلهم معنى لمرادات الله تعالى تعالج به قضية الجبر والاختيار الذي احتار فيها كثير من الذين أطلقوا لأنفسهم عنان الفكر فيها بمزيد من التكلف في الرؤى والتصورات فابتعدوا عن مرادات الله تعالى وحِكَمِه، وأغربوا في ذلك الخيال.

ونستطيع أن نقول لتوجيه بقاء السنن وخرقها في حياة الأمم والشعوب وفي تاريخ دعوات الأنبياء والمصلحين من حيث دلالات التصريف الإلهي والتيسير والتسيير لعباده أن الإنسان مسير في الألطاف مخير في الأفعال والأوصاف.. أي

(1) سورة فاطر: 19 – 22.
(2) سورة الشورى: 11.
(3) سورة النحل: 17.

أن الإنسان مسير في لطف الله تعالى به إذ لا إرادة له في ذلك إطلاقاً.. ومخير في أفعاله وما يترتب عليها من صفات مكتسبة من حيث الخير والشر، أو الصلاح والفساد، فذلك بمحض فعله واختياره وإرادته، ولا تعلق إرادة الله تعالى به إرادة إنفاذ لما يريده العبد لتحقيق مبدأ المسئولية والجزاء وما يترتب عليه من ثواب وعقاب، فاعقلوا يا أولي الألباب.

لا غروا أن من حس الفطن، وحكمة التعقل، وفطانة التدبير أن تفهم دورات التاريخ الإنساني في قيام الحضارات وانهيارها، وبقاء الأمم وفنائها في إطار هاتين السنتين الإلهيتين «الإيجاد» و«الإعدام» أو «الإفناء»، ذلك أن الوجود الحقيقي للأمم والشعوب وبالمطلق الإنسان، في أي عصر ومصر وكذا الحياة الحقيقية لا يمكن تصورها إلا في إطار التدين الصحيح والاعتقاد القويم وتطبيق شرع الله تعالى في القلوب والنفوس قبل تطبيقه في واقع الحياة، هذا هو المقياس الحق للبقاء والفناء.. للحياة الحقيقية والحياة الزائفة.. للقيم الإنسانية الهادفة والقيم الإنسانية الهادمة.. للمنظومات السياسية التي تسوس الناس وفق معطيات الحق ومقررات الوحي ومواهب العلي الوهاب سبحانه وتعالى والمنظومات التي تسوسهم وفق مقررات العقل وهواجس النفس في معزل عن وحي الله تعالى ومواهبه؛ هذا ما نستلهمه من قصص الأمم السابقة مع أنبيائهم في القرآن الكريم، وفيها عِبَر للمعتبرين؛ وعظات للمتعظين، وهداية للمهتدين، فبقاء حياة هذه الأمم كان مرهوناً بتطبيق وحي الله تعالى عقيدة وشريعة وقيماً وأخلاقاً، وأصولاً ومبادئ، وزوال حياتهم وفنائهم ما كان إلا بسبب كفرهم بآيات ربهم وتكذيبهم رسلهم ومعاندتهم لهم وإسامة المؤمنين بهم سوء العذاب، واستبدالهم شرع الله تعالى بأهوائهم وأمانيهم الكاذبة.

سنة العناية الربانية:

1– عناية الله تعالى بخلقه لم تتوقف على مراحل البنى التكوينية، وإنما تستمر لتشمله بعد إتمام خلقه بالرعية والحفظ وتدبير شئونه وتصريف أحواله، أي من يوم أن قدر الله تعالى له الحياة إلى يوم وفاته، وقبره في مثواه الأخير وإثابته ومعاقبته بعد الحساب، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

الأدلـة:

أ– قوله تعالى: ژ□□□□□□□□□□ژ[1].

ب– قوله تعالى: ژ**ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ**ژ[2].

(1) سورة طه: 50.

(2) سورة الإسراء: 70.

ج– قوله تعالى: ژ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ژ[1].

د – قوله تعالى: ژ ﭑ ﭒ ژ[2].

2– والعناية الإلهية بالمخلوقات من مقتضى رحمة الله تعالى بخلقه ولطفه بهم، فهو تعالى إذ خلقهم لم يجعلهم بنى مادية فقط، بل زود هذه البنى بالروح التي تتوق إلى آفاق التعبد الحق ورضوان الله تعالى، كما زودهم بالعقل الذي يستشرف آيات الجمال والجلال الإلهية في الأنفس والآفاق فجعلها بنى مدركة فاعلة في عمارة الأرض بعبادة الله تعالى والعمل الصالح ووهبها من الوحي الكريم ما يصون حياتها ويحفظ حقها ويرشد سلوكها، ويقوم أخلاقها ويهديها تقواها وفجورها.. فيبين لها الرشد من الغي، والهدى من الضلال، الإيمان من الكفر، والاستقامة من الانحراف، هذا على مستوى القيم الجمالية الروحية.

الأدلـة:

أ – قوله تعالى: ژ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ژ[3]

ب – قوله تعالى ژ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ژ[4]

ج – قوله تعالى: ژ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ژ[5]

د – قوله تعالى: ژ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ژ[6]

3 – أما على مستوى القيم المادية فقد حفظ الله تعالى بعنايته المخلوقات من فساد بناها التكوينية فيما قدر من حياتها، إلا ما كان فتنة واختبارا، وأمدها بوسائل الإدراك الحسية، وقدر لها أرزاقها، ويسر لها سبل عيشها، وسخر لها الكون بآياته العظام وأجرامه الجسام، وصرف لها مقومات الحياة، فمهد الأرض وسخر الشمس والقمر، وسخر الريح، وأنزل المطر، وأنبت الزرع، وأودع الأرض والشمس مصادر الطاقة فجعل الظلمة والنور، والليل والنهار.

---

(1) سورة الرحمن: 1 – 4.
(2) سورة البلد: 10.
(3) سورة البقرة: 256.
(4) سورة الأنعام: 125.
(5) سورة الجن: 16.
(6) سورة الشمس: 7، 8.

الأدلـــة:

أ– قوله تعالى: ژ[illegible]ژ [1]

ب– قوله تعالى: ژ[illegible]ژ [2]

ج– قوله تعالى ژ[illegible]ژ [3]

د– قولــه تعــالى: ژ[illegible]ژ [4]

4– وقد شرع الله لها من التشريعات الحكيمة ما تحافظ به على هذه البنى التكوينية المادية في الأجساد، والأنفس، ليس هذا فحسب وإنما امتد ليشمل كل المقدرات طولا وعرضا، وظاهراً وباطناً، وقرباً وبعداً، وصيرورة ومآلاً، ليشمل الظروف المحيطة بالإنسان، فشرع الحلال والحرام، فأحل كل طيب وحرم كل خبيث، إزكاءً للنفس وحفظا للجسد وحفاظا على ظروف الحياة المحيطة (البيئة) وتجنيبا لها مما يفسد بناها التكوينية ومقدراتها الحياتية، فحرم الخمر وما يذهب العقل وما في حكمها وعلة مماثلتها، وحرم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق قصاصا، فحرم الدم والصراع المفضي إليه، وحرم الزنا لأن ارتكابه يدفع إلى الانتقام من الزاني ثأراً للكرامة والشرف، وحرم القذف لما يفضي إليه من الظلم والجور والدنس ولأنه يدفع أيضاً إلى أهلاك الجسد وإزهاق الروح انتقاماً للعرض من القاذف، وحرم الربا لما له من آثار بغيضة ترسخ للتنافس البغيض على المال واستغلال الفقراء، والتصرف المذموم بمقدراتهم المالية، والإجحاف بحقوقهم المالية المشروعة، وفرص العيش الشريف والكسب المحترم شرعا، وكل ذلك يوسع الهوة بين القادرين وغير القادرين وبين الأغنياء والفقراء.. إنها هوة تسَّر فيها ليس فقط المقدرات المالية وإنما أيضا النفوس والأجساد، ولك أن تتخيل موقفاً واحداً من الفقراء والمعوزين والمستغلين ضد الأغنياء والقادرين، وما يترتب على ذلك من ثورات نفسية واجتماعية تحيل المجتمع إلى بؤر فاسدة ليس فقط بؤر الحقد والحسد من الفقراء على الأغنياء وإنما بؤر لإفساد الأجساد وإزهاق الأرواح انتقاماً للحق المسلوب والمقدرات المهدرة، وتسخير المال في يد قوى اجتماعية لا تملك في سياستها المالية إلا مزيداً من البطش والإجحاف والإضرار، بل وإذلال الآخر غير القادر والمعوز والفقير.

---

(1) سورة النحل: 12.
(2) سورة لقمان: 20.
(3) سورة فاطر: 13.
(4) سورة الجاثية: 13.

فما أقبح الاستغلال والجشع الذي يحيل المجتمعات الإنسانية إلى صراع طبقي يرسخ لمبادئ اللاحياة واللاحق إلا لمن أراد وملك وقدر.. فكم سقطت مجتمعات وانهارت حضارات بسبب الرأسمالية الظالمة والشيوعية المجحفة اللتان كرستا للمادية والعلمانية والإلحاد، وجعلت العالم يدور في اتون صراعات مادية وجدلية أتخمت الجسد وأعاقت الفكر الراشد واغتالت الروح تغذيها نظريات وآراء وتصورات سياسية تجردت من تعاليم الوحي الإلهي وخلوت إلى السيطرة والنفوذ واستغلال ثروات العالم الفقير والضعيف، وكان لهذا تأثير بالغ وأثر سيء في ذيوع نزعة الانتحار في الغرب تارة والقتل تارة ثانية، والغصب والاغتصاب تارة ثالثة، فأفسدت بذلك بنى تكوينية ليس للأجساد فحسب وإنما للمجتمعات مدفوعة بسياسات التطهير العرقي، وإثارة الشعوب للنزوع إلى ثورات وانقسامات فكرية واجتماعية وعرقية وطائفية، بل ودينية ليس إلا لاستلاب الثروات ونهبها.

وثمة أمثلة ونماذج تشريعية كثيرة تؤصل للعناية الإلهية والرعاية الربانية للإنسان والكون وفق معطيات ومقررات وأصول ودلالات الدين الوسطي الحق، بيد أن المقام لا يسع لبسطها، وليس هذا موضوع بحثنا، ونحيل إلى تفاصيلها من مظانها ومصادرها الشرعية، فليرجع إليها.

5– عناية الله تعالى بما يجول في خواطر النفس البشرية:

إن المتأمل في دلالات التشريع الحكيم من خلال نصوصه الكلية والتفصيلية الجزئية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يدرك تمام الإدراك أن عناية الله تعالى ورعايته لمخلوقاته لم تتوقف عند حدود الحفاظ على البنى التكوينية للأجساد وصيانتها، وإنما تعدت هذه الحدود إلى حدود أجل وأعظم وأدق وألطف وهي أحاديث الخواطر النفسية ومدارج الانفعالات الوجدانية وما يستكنه الإنسان في صدره أو توسوس له به نفسه أو تنزع إليه نزوعاته أثرة وأنانية أو جنوحاً إلى التفريط في الالتزام بالأحكام الشرعية والاستقامة التعبدية والسلوكية.

قال الله تعالى: ژ**ٱٻٻٻپپپپڀڀ ڀٺٺ**ژ [1]، وفي تذييلات العديد من الآيات الكريمة: ژ**ٻٻٹٹ**ژ [2]، ژ**ۆۆۈۈۇٴ**ژ [3]، ژ**ۆۆۅۅۉۉ**ژ [4]، ژ**ڃڃڃڃ چچ**ژ [5]، ژ**ڳڳڳڳڱڱڱڱ**ژ [6]، ژ**ٺٺٺٺٿٿٿٿٹٹٹٹ ڤڤڦڦ**

(1) سورة ق: 16.
(2) سورة الحج: 63.
(3) سورة المائدة: 8.
(4) سورة آل عمران: 119.
(5) سورة غافر: 19.
(6) سورة البقرة: 235.

قـقـقـج..... ژ[1] وغير ذلك من الأدلة كثير في القرآن الكريم وكذا السنة الشريفة.

ومما يندرج تحت هذه السنة الإلهية العظيمة الكليات الخمس وهي: حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال.

حب المنشأ:

حب المنشأ سنة من سنن الله تعالى الإنسانية في تاريخ الإنسان منذ نشأته في الكون وحتى نهاية وجوده فيه، وهي سنة فاعلة في تاريخ العمران البشري وأساس من أسس الاجتماع.. وهي سنة فطرية يعبر عنها بـ (حب المنشأة) أو (الانتماء) أو (التجذر) أو (حب البلد) وأطلق حديثاً (حب الوطن) و(المواطنة) بما يتضمنه من حقوق وواجبات من خلال التفاعل المشترك والعيش المشترك بين أبناء الوطن الواحد.

ومما يؤصل لهذه السنة الإلهية في الخلق المركوزة في الفطرة الإنسانية موقف الرسول (^) في هجرته الشريفة من مكة إلى المدينة المنورة، وقد احتوت عيناه الشريفتان معالم مكة، وخالج دروبها وأزقتها وجبالها وسهولها وجدانه، وتعلقت بذكرياته فيها خواطره، ولم لا وهي مسقط رأسه الشريفة ومدرج تعبده لله تعالى في خلواته التأملية في غار حراء، ذلك المكان الذي يمثل شرفة من الشرفات التي يبصر منها الناظر معالم مكة كلها، وكيف لا وهي موطن رسالته ومدرج دعوته، وفيها أهله وقرابته...

ما أصعبها من لحظات وما أقساه من قرار وما أوجسه من مآل!! تلك اللحظات التي يقرر الإنسان فيها فراق بلده، وبها أهله وأحبته ورفاقه، وفوق ذلك بيت الله الحرام الذي يأنس به ويتوق إليه.. ما أوجسه من مآل مجهول العواقب.. محفوف بالمخاطر تلفه الظنون، وتستغرقه الشكوك، وتحيطه هواجس الوحشة لولا أن الله تعالى قد صدقه الوعد، فآنسه في مهاجره، وعوضه عن ذلك بأهل من خيرة خلقه وصحب من خيرة صحبه، ومع أن الله تعالى قد استبدل وحشته في هذا المكان الغريب عليه بأنسه، واستبدل آلامه بالآمال، وأمنياته بالحقائق فمكن له دينه وأسس فيه معالم دولته الجديدة – مع ذلك فإنه (^) كان يراقب اللحظات التي يأمل أن يعود بها إلى مكة.. دار المنشأ والقرابة والأهل آملاً في تغيير معالمها وثقافاتها وأحوالها وطقوسها وعقائد أهلها وعباداتهم وفق مرادات الله تعالى كي تطهر من دنس الشرك وانحرافات المسالك التعبدية بها أن قدمها (^) في حجة الوداع ثم دخلها فاتحت.

(1) سورة المجادلة: 7.

ولك أن تقارن بين موقفه (^) في الهجرة وموقفه (^) منها في الفتح.. فرغم أنه هاجر منها مضطراً إلا أنه عاد إليه محباً، ورغم أنه عانى فيها وطأة الظلم إلا أنه دخلها عفواً كريماً سمحاً سهلاً، وبرغم آلام الفراق في مهاجره إلا أنه (^) دخلها فرحاً مسروراً محباً، وغم المحاولات التي حاكها أهل مكة لاغتياله (^) والقضاء على رسالته إلا أنه كان حريصاً على عدم إراقة الدم وقتال المسالمين والضعفاء من الرجال والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا.

يؤكد هذه السنة الإلهية في الخلق قول الرسول (^) وهو خارج من مكة مهاجراً وقوله (^) وهو داخل فيها فاتحاً.

أما قوله وهو خارج من مكة: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ»[1].

وقوله (^) وهو داخل مكة وقد جمع أهلها: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ ؟» قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ قَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[2].

فذاك قوله وهو مهاجر من مكة يعتصره الألم لفراقها بما فعله أهلها به (^)، وهذا قوله وهو داخل إياها منتصراً في تواضع الأنبياء لا في زهو الملوك، وسماحة الفاتح لا انتقام القادة على نحو ما هو معهود من هؤلاء وأولئك في أحداث التاريخ ومشاهده.

إن فهم هذه السنة الإلهية في الخلق هام لدراسة التاريخ وحركة التأريخ لفصوله وأحداثه ومشاهده ووقائعه، كما أن فهم هذه السنة الإلهية ضروري في تفسير حركة التاريخ ودراسة تاريخ العمران البشري، كما أنه ضروري لترسيخ مبادئ المواطنة من حيث حب الوطن والدفاع عن حياضه والتضحية في سبيله ومقاومة الغازي والمستعمر وعمارته بالعمل الصالح والنهوض به وفق قوانين الهداية الإلهية وشريعة الإسلام السمحة التي تتمحض للبناء لا للهدم، وللإصلاح لا للإفساد، ورعايته الأمة ومصالح أفرادها، والموازنة بين مصالح الوطن ومصالح الأمة، وبين مصالح الوطن ومصالح الفرد.

إن فهم هذه السنة الإلهية في الخلق يمكن الدعاة إلى الله تعالى من أداء رسالتهم ونشر دين الله تعالى في أرضه وهداية الناس إلى الله رب العالمين إزكاءً لمبادئ الدين الإسلامي الحنيف وترسيخا لقيمه وشريعته.

---

(1) أخرجه الإمام ابن حبان في صحيحه: باب فضل مكة أبواب ذكر البيان بأن مكة كانت أحب الأرض إلى رسول الله (^) 33/9.

(2) أخرجه الإمام البيهقي في «معرفة السنن والآثار» باب المسلم يدخل دار الحرب فيشتري داراً أو غيرها 293/13.

وإذا كان الأمر كذلك من الأهمية فإننا ندرك خطورة غياب فهم هذه السنة الإلهية في دراسة تاريخ الأمم وسير الأنبياء والقادة الفاتحين والدعاة المصلحين، كما يتضح خطورة تغييبها عن ذاكرة التاريخ ووعي الأمة وإدراكها لفصول التاريخ ومشاهده ومقاصد دراسته لاستلهام العبر والدروس وقياس مصالح الأمة الآنية والمستقبلية عليها.

الاجتماع البشري:

أثبتت الدراسات الاجتماعية والتاريخية[1] أن «الإنسان مدني بطبعه» يألف ويؤلف، يتطلع إلى الاجتماع ويرفض الوحدة، والانزواء والتقوقع في بؤر التفرد والانقسام التي لا تؤدي إلا إلى مزيد من الفرقة والشتات والاستقطاب الحاد نحو عوامل الفرقة والتجزئة.

ورغم أن هذه السنة الإلهية ضرورية لفهم تاريخ الأمم وسيرها، وعوامل نهضتها وتقدمها ورقيها ومحاربة سبل الشقاق وما يتهدد وحدة المجتمعات الإنسانية ومصيرها ومآلها، إلا أن حمكة الله تعالى قد اقتضت في تاريخ العمران البشري وتاريخ الأمم والممالك والشعوب والمجتمعات ما يلي:

أ– التنافس والغبطة.

ب– التمايز والتغايظ والصراع.

ج– التداول والتمكين.

أولاً : التنافس والغبطة.

اقتضت حكمة الله تعالى في الخلق مراعاة مبدأ «التنافس والغبطة» بين الناس وهو مبدأ هام لإزكاء القيم والمبادئ، وفعل الخيرات وترك المنكرات، وبناء الأمم والدول، والحفاظ على مصالحها وإزكاء نهضتها ومحاربة عوامل سقوطها وانكسار مسارات تاريخها.

إنها حكمة ترسخ لقيم التعارف والتوافق لإصلاح الأفراد والمجتمعات، والتعايش السمي بين الأفراد والدول والشعوب.. في إطار الموازنات والترجيحات بين مصالح كل من هذه الأطراف بحيث لا يتعدى فرد على مصلحة فرد، ولا دولة على مصالح دولة، ولا شعب على مصالح شعب.. إن هذا التنافس

(1) يراجع في هذا المراجع والمصادر الخاصة بدراسة التاريخ والعمران والدراسات النفسية والاجتماعية التي نعني بدراستها سلوك الأفراد والجماعات والمجتمعات والممالك والدول، وما يستتبعهامن دراسة صفات الأنبياء، والملوك، والقادة، وحركات الانقسام الناشئة عن المذهبية والحزبية والأيديولوجيات التي تؤصل للصراع وتشعل جذوته ليأكل الأفراد والمجتمعات والدول.

وهذه الغبطة في إطار هذه التوازنية الربانية يحققان استقرار المجتمعات البشرية وتحقيق مبادئ السلامة والعيش المشترك والعمل الفاعل في البناء والنهضة بما يحقق الصالح العام، وتذويب فوارق الطبقية والقضاء على عوامل الانقسام التي تزكي الصراع من أجل المصالح الخاصة والعامة والصغرى والكبرى، وتهدد استقرار المجتمعات والشعوب.

إن مبدأ «التنافس والغبطة» يجب فهمه في إطار حركة الإصلاح العام لهذه المجتمعات والشعوب بما يحقق مصالحها الدنيوية ويصلح مآلاتها الأخروية في إطار التعبد الصادق لله رب العالمين.

ومما يؤكد هذا قول الله تعالى: ژ ڳ ڳ ڳ ڳ ں ڻ ڻ ڻ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ژ[1].

إن هذا التنافس المحمود وكذا الغبطة التي تدفع الإنسان إلى تحقيق مثل صلاح المصلحين لنفسه وهداية المهتدين ورشد الراشدين وعرفان العارفين هما اللذان يحققان النموذج الأمثل الأنفع والأبقى.. الأطهر والأنقى، ذلك النموذج الذي يتسم بالحياة والخلود والعزة والمجد لهو الأصلح لأن تصاغ حياة البشرية في ضوئه ونبني المجتمعات وتصاغ الشعوب على أسسه وفي رحابه.

وهذا التنافس هو الذي وضع دولا في صدارة الدول وشعوباً في صدارة الشعوب.. هو الذي حقق للأمة الإسلامية بقاءها ومحصي خصائصها وسماتها ورفع ذكرها ومجدها بين الأمم والشعوب ووقائع التاريخ وأحداثه شاهدة على تنافس صحابة رسول الله في فعل الخيرات وتعطير الحياة بأريج العمل الصالح فأقام الله تعالى لهم دولتهم في فترة وجيزة من فترات التاريخ في ثلاث وعشرين عاماً على نحو معجز في التاريخ الديني والسياسي وميادين العمران البشري، وما تزال البشرية بخير طالما حذت حذو هذه الأمة المباركة، ومازال المسلمون بخير ما حذوا حذو سلف الأمة الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم (ψ) ومن حذا حذوهم وتتبع في تحقيق العمران خطواتهم ونهج منهجهم، ويؤسس القرآن الكريم لهذا المبدأ العظيم بقول الله تعالى:

ژ ئى ئى ى ى ی ی □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ژ[2]، وبقوله تعالى: ژ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڍ ڍ ژ[3]، وبقوله

(1) سورة المطففين: 18 – 28.
(2) سورة المؤمنون: 57 – 61.
(3) سورة البقرة: 148.

تعالى: ژٹٹٹٹۀۀہہہھھھےےۓۓڭڭڭڭۇۇژ[1].

وقد جاءت الآيات الكريمة بمقتضى حكمة الله تعالى وفق ما أجراه الله تعالى من هذه السنة الإلهية في خلق الإنسان لتجعل منه نموذجا فريداً متميزاً في بناء نفسه، وصياغة تاريخه، وتحقيق ذاته، وصناعة مجده.

إن دراسة الدعاة لهذه السنة وفهمهم إياها ومراعاتهم طبيعتها ومآلاتها ومقاصدها وغاياتها هام لإثراء العمل الدعوي من حيث اختيار الأسلوب الأمثل في الدعوة إلى الله تعالى لاستخراج كوامن طاقات الإنسان لحضه على العمل الصالح والتنافس فيه بقصد تحقيق صالح الإنسان وصالح الإنسانية.

ثانياً : التمايز والتغايظ والصراع:

إن دراسة منهج الدعوة الاسترادادي يفتقر إلى فهم التمايز والتغايظ والتدافع باعتبار ذلك سنة من سنن الاجتماع البشري، وفهم خصائص وطبائع وسلوكيات الأمم والشعوب والأفراد والجماعات المؤثرة في صياغة تاريخ الأمم والشعوب وهي ضرورية لتفسير الظواهر التاريخية والنزوعات البشرية، وهامة للوقوف على مدى أهمية العمق التاريخي لهذه الظواهر باعتباره مساقا عاما ينتظمها بكل مفاهيمها الجوهرية وخصائصها التاريخية، كما أنها تمثل ضابطا لحركة التأليف أو التأريخ.

وبالأحرى إن فهم حركة التاريخ يتوقف كليا على فهم هذه السنن الإلهية في الخلق، فهي الوقود المحرك لـ «ديناميكية» التاريخ، أي لحركة التاريخ، ومؤثرة بالدرجة الأولى في تكوين تلك الظواهر التاريخية فضلا عن تفسيرها.. بل إنني أعتبر أن صياغة التاريخ بدون فهم هذه السنن الإلهية عبث محض، ولا يمكن أن يؤدي إلى فهم صحيح لتاريخ دعوات الأنبياء بصفة خاصة والتاريخ العام بصفة عامة، وبالتالي فإن الدراسات التاريخية بعيدة عن هذا الفهم دراسة جدباء لا تزيل عن العقل البشري جهالة الأحداث والمشاهد التاريخية، فالتاريخ نتاج لسلوك أمم ومجتمعات، وهذه السنن هي التي تضبط منازع الناس وتحكم سلوكهم.

وباختصار فالتاريخ محصلة لتلك السنن الإلهية التي تنظم تلك المجتمعات بما فيها الأفراد والجماعات.. والتأريخ ليس مجرد حركة أو علم راصد لتاريخ الأمم والشعوب.. إذ أنه ليس نحتا لواقع وإن كان وصفاً له وإنما يعتمد اعتماداً كليا على تحليل الظواهر التاريخية لفهم أحداثها ووقائعها واستيعاب العوامل المؤثرة في تكوينها إيجاباً وسلباً.

وعلى الدعاة أن يفطنوا لهذا، عليهم أن ينظروا إلى التاريخ لا على أنه مرآة

(1) سورة المائدة: 48.

تعكس الأحداث والمشاهد التي تكون الظاهرة التاريخية، وإنما لابد من إدراكها على نحو من الدقة والعمق.. لاسيما أن دراسة التاريخ لا تنحصر في أنماط أفقية، وإلا اقتصرت على مجرد الوصف، وإنما هي دراسة تجمع بين الأنماط الأفقية والأنماط الرأسية، وبدون الأخيرة لا يمكن فهم تاريخ المجتمعات البشرية، وعندئذ نكون كمن يمسك بالفيل من ذيله، ولا نستطيع أن نصف جسمه وصفاً دقيقاً لأنه غاب عنا ولم نعرفه، وهذا يوقعنا في الجهالة بالمؤثرات الفاعلة في تكوين أحداث التاريخ ومشاهده.

وبناءً على هذا نقول إن صور الصراع في المجتمعات البشرية تتدرج تصاعديا من الدرجة الأدنى إلى الدرجة الأعلى، أي أنها تبدأ بالتمايز، وأقصد به الخلاف الحاد بين الأفراد أو الجماعات، ثم ينتقل الصراع إلى مرحلة التغايظ وهي مرحلة تبدو فيها المؤثرات النفسية بصورة قوية متمثلة في الحقد والكراهية وتمني محو الآخر واستئصاله من الوجود، وهي مرحلة تسبق «التدافع» وأعني به الصراع الفعلي المتمثل في الاشتباكات المباشرة في صوره المختلفة من الإيذاء والضرب والقتل.. فلو لم نفهم هذا التدرج الطبيعي لمراحل الصراع في المجتمعات البشرية لم نستطع تحليل الأحداث ولا معرفة صورها التصاعدية، وبالتالي يغيب عنا فهم حقيقة الصراع ومراحله التاريخية في تاريخ الممالك والإمبراطوريات والدول، وحتى في المجتمعات البدائية وبناء على هذا لا نستطيع فهم قضية الصراع بين «الملأ» - أي القوة المؤثرة في صياغة المجتمعات البشرية – وبين عامة الناس، ولا نستطيع أن نفهم قصة صراع الطبقات وسطو المملوك وصدام الإمبراطوريات والممالك الذي يُغير واجهة التاريخ على هذه الأرض، ويدير أحداثه ومشاهده، وقد يغزي هذا الصراع معتقداتٌ وأيديولوجياتٌ فكريةٌ وثقافاتٌ بدائية، وثمرة ذلك كله إزهاق حياة العديد بل المئات والألوف والملايين من البشر، وهذا يتوقف على أدوات إدارة الصراع وتطورها على مدار التاريخ لاسيما في العصر الحديث الذي تعددت وتنوعت فيه تلك الأدوات فصارت أكثر فتكا بالإنسان.

وأضحت آلات الصراع في العصر الحديث أكثر خطورة وأكثر دموية ووحشية تصل إلى حد الإبادة الجماعية لمجموعات بل وأعراق ودول تزكيها النعرات العرقية تارة والقومية تارة ثانية والإقليمية تارة ثالثة، وتارة ابعة صراعات القوى الكبرى فيما بينها، والتي تذوب في إطارها الكيانات الصغرى والدول الضعيفة، وتنمحي إرادة ما تبقى من البشر إثر ذلك الصراع في صياغة حياتهم وصناعة تاريخهم.

أنه صراع بدأ بالخلاف حول المصالح، ثم بالشحن النفسي والتغاير حقدا

وحسدا وحنقا، وانتهى بالقتل والإبادة الجماعية.. إن مشاهد التاريخ في هذا الصراع مشاهد ملونة بالدم بصورة تعكس همجية الإنسان في عصر ترقى فيه إلى معارف وعلوم – لم يقف عليها السابقون – صخرها للإفساد في الأرض وتغيير وجه الحياة في فصول التاريخ وأحداثه!!! فهناك الحرب الكيميائية والبيولوجية والنووية والتي من شأنها إبادة سكان الكرة الأرضية عن بكرة أبيهم!!!.

لو لم نفهم هذه النزوعات ما استطعنا تفسير ظواهر العنف والإبادة، وغصب حقوق الدول ولا للثورات الملونة التي تستخدم فيها الكيانات الكبرى أصحاب المصالح مستغلة الخلافات الطائفية والعرقية والدينية والمذهبية في إزكاء الصراع وإرادته على الأرض حتى بين أتباع الدين الواحد!! ژکگگگژ !!![1].

تلك الصراعات الكبرى التي استغل فيها ساسة الكيانات القويد الدين والمعتقد والأيديولوجيات كوقود محرك للقوى الكامنة في نفوس دول وشعوب وجماعات بشرية ضد إخوانهم من بني الإنسان.. إنه وقود إدارة القتال وسفك الدم ونهب الثروات باسم الدين والمعتقد والفكر والموروث البيئي والمكون الثقافي.. وما أخطر من استغلال تلك المكونات النفسية والعقلية والثقافية والتقاليد في إدارة مثل هذا النوع من الصراع الدموي.

وقد استغل الساسة في القديم والحديث هذه العوامل في إخضاع البشر لإراداتهم وسيطرتهم على منابع ثرواتهم ودعمهم في هذه النزوعات اللادينية واللإنسانية الكهنة ورجال الدين.. والتاريخ الإسلامي مترع بالمشاهد والأحداث التي تبين حمالات الإخضاع والهيمنة والسيطرة باسم الدين حتى أقنعوا المتدينين بـ مبدأ «الحق الإلهي الممنوح» لرجال الدين في إدارة شئون أتباعهم من أبناء ملتهم، واستغل الساسة القياصرة هذا المبدأ الذي منحه رجال الدين لأنفسهم وزعموا أن الله منحهم الحق المقدس بإدراة شئون شعوبهم حتى انتشرت في بعض الإمبراطوريات الكبرى عقيدة تأليه البشر لاسيما الحكام، وانتشرت عقيدة العصمة لطبقة الكهانة الداعمة لنفوذ الملوك والقياصرة والتاريخ القديم والحديث شاهدا على هذه النزوعات الفاسدة.

ففي العصور القديمة انتشرت في الإمبراطورية الفرعونية عقائد عبادة البشر والأسلاف وتأليه الفراعنة، وانتشرت سطوة الكهان من المعابد الفرعونية التي كانوا يستغلونها لإخضاع الناس للحكام من دون الله تعالى، حتى أن القرآن

(1) سورة عبس: 17.

الكريم أخبرنا بهذه النزوعات البشرية الضالة، فقال تعالى حاكياً عن فرعون قوله: ﴿ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ﴾، وقوله: ﴿ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ﴾، وبين الله تعالى جزاءه: ﴿ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ﴾[1].

وفي عصر الدولة الرومانية في عهد قسطنطين حدث أكبر عبث بالديانة المسيحية بمباركة رجال الدين غيرت جوهر المسيحية الحقة النقية الصافية التي جاء بها المسيح υ وذلك لدعم نفوذ قسطنطين وتوطيد أركان حكمه.. وفي نجران كان يعبد الملك من دون الله تعالى حتى إنه كان يقتل من يكفر به إلهاً، وتلك قصة الأخدود [2] شاهدة على انحراف البشر وتأليه الذات وعبادة الملوك، حيث قام الملك الذي خلع على نفسه وصف الألوهية وقامت طبقة البلاط الملكي بدعمه عن طريق إقناع عامة الناس بذلك – قام هذا الملك بقتل من كفر به وآمن بالله رب العالمين، ونزل في ذلك قرآن يتلى ويتعبد الله تعالى إلى يوم الدين ﴿ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ﴾[3].

وفي العصر الحديث أقنع قادة الحملات الصليبية الشعوب المسيحية بأنهم يقاتلون من أجل إعادة مجد المسيح وسلطان الكنيسة، لأنهم يعرفون ما للدين من تأثير قوي في النفوس، ورُفع شعار الصليب والمجد للكنيسة، وتوطيد حكم الرب في الأرض. وكم أزهقت أرواح زكية في هذه الحروب التي أسموها بالصليبية، وكم انتهبت ثروات واحتلت دول باسم الصليب ومجد المسيح أو مجد الرب، والرب تعالى والمسيح (υ) منه براء.. فقد جاء المسيح بالسلام لا بالدم.. جاء نبياً لا حاكماً ولا طاغية، جاء معمراً للأرض لا مخرباً فيها.. جاء ليبني الإنسان لا ليجتثه من الوجود.. جاء ليحافظ على حقه لا ليضيقه، ذلكم المسيح (υ) في القرآن الكريم. لا كما زعمه قادة الصليب على حملاتهم وإغاراتهم على العالم الإسلامي!!.

وفي العصر الحديث أيضاً استغل زعماء الصهيونية العالمية وقادة اليهود الدين لإعادة مجد بني إسرائيل وإقامة مملكة فشحذوا همم رجال الدين – لإقامة مشروعهم الصهيوني وحلمهم في إقامة دولة إسرائيل في أرض فلسطين.. رغم

---

(1) سورة النازعات: 25، 26.

(2) يراجع قصتهم في جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، ح 24، ص 338 وما بعدها، مؤسسة الرسالة، ط: أولى 1420هـ - 2000م، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير جـ 8 ص 366 وما بعدها والتفسير الوسيط للقرآن الكريم، د/محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر – دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ط: أولى 1997 – 1998م.

(3) سورة البروج: 1 – 8.

أن رجال الدين اليهود كانوا يعارضون قيام دولة يهودية خشية القضاء على اليهود في هذه الأرض لو جمعوا من أرض الشتات.

وباسم نبي الله سليمان (υ) والمجد المزعوم لبني إسرائيل.. أريقت دماء زكية على أرض فلسطين، وانتهكت أعراض، وقتل أطفال، وأبيدت أسر بكاملها وشردت أسر أخرى خارج بلادها في أشرس مواجهات في التاريخ الحديث.. فتلك القنابل المخصبة باليورانيوم والقنابل العنقودية ووسائل القتال الحديثة من صواريخ وطائرات مقابل الحجارة ونداءات التحرر الوطنية في فلسطين، وصدور الأطفال والشيوخ والنساء والشباب!! وسط تعاون دولي وتأييد للمشارع الصهيونية ورعاية لها وفي كل استكبار وعتو وعدم انصياع لقرارات الأمم المتحدة المتخاذلة ومجلس الأمن بشأن قيام دولة فلسطين!!.

ولو أن نبي الله سليمان (υ) حيا لقاتل اليهود بما فعلوه، ذلك أن المقصد من رسالات الأنبياء صناعة الإنسان وفق تشريعات الوحي الإلهي الكريم، وما كانت رسالات الأنبياء تنتصر لظلم أو بغي أو عدوان، وما كانت لتؤيد إبادات جماعية بقصد بناء كيانات سياسية بحتة، فقد كان سليمان (υ) نبياً قبل أن يكون ملكاً، ولما آتاه الله تعالى الملك ما كان لمقاصد تخلص لتأسيس إمبراطوريات وممالك، وإنما ليعلي فيها كلمة الله تعالى وينشر فيها دينه ليحيى الناس في ظله آمنين مطمئنين.

كما استغلت الولايات المتحدة الدين في العصر الحديث فقامت بتأييد ودعم كيانات دينية في الأوساط الإسلامية نجحت في زرعها في أفغانستان لجر الاتحاد السوفيتي آنذاك لحرب استنزاف مباشرة على أراضي أفغانستان كانت سببا في انهيار الاتحاد السوفيتي، وقد أطلقت على هذه القوى حركة المجاهدين الأفغان، أو على الأقل روجت لها إعلامياً في وسائل الإعلام الأمريكي آنذاك، وبارك الغرب الموالي للولايات المتحدة الأمريكية هذه الحرب وسط تأييد إسلامي من بعض الدول والدعم السياسي لهذه المواجهات..

لقد كانت حرباً بالوكالة خاضتها قوى إسلامية – للأسف – لتأمين المصالح الأمريكية والغربية الكبرى والتي كان يتهددها بصورة قوية بقاء الاتحاد السوفيتي كقطب قوي مناوئ للسياسة الأمريكية والغربية في العالم. ولما آتت تلك الحرب مخاضها وانهار الاتحاد السوفيتي ألهبت الولايات المتحدة والغرب الصراع بين الجماعات الإسلامية المقاتلة آنذاك خشية أن تمثل هذه القوى نواة لدولة إسلامية قوية في آسيا تمتد إلى العمق الإسلامي في الشرق الأوسط لتهدد مصالح الغرب والولايات المتحدة فنشب الصراع بينهم وقاتل بعضهم بعضا.

وبعد حادث الحادي عشر من سبتمبر (2001 م) بالولايات المتحدة

الأمريكية تغيرت واجهة السياسة الأمريكية تجاه هذه الجماعات وأطلقت عليها الجماعات الإرهابية، وخاضت حرباً مباشرة ضدها في أفغانستان والعراق الداعم وفقا لزعمها لتلك الجماعات.. وقتلت إثرها ابن لادن زعيم تنظيم القاعدة الإرهابي.

وفي تقدير النقاد أن تلك الجماعات والاتجاهات أخطأت في خوضها تلك الحروب بالوكالة عن الولايات المتحدة الأمريكية.. كما أخطأت مرة أخرى عندما أعطت الفرصة للولايات المتحدة الأمريكية أن تستغلها في العمق الإسلامي في الشرق الأوسط كوقود لثورات ملونة خططت لها الولايات المتحدة وقوى غربية أخرى والقوى الصهيونية العالمية لإعادة صياغة خريطة الشرق الأوسط الجغرافية وجر المنطقة بكاملها إلى دوامات من العنف الدموي تستغل في تقسيم الدول وفرض سياسة الصهيونية الحاقدة على العالم الإسلامي في مصر وسوريا واليمن وغيرها من الدول الإسلامية.. والتي أطلق عليها الإعلام الغربي وتبعه الإعلام العربي بثورات «الربيع العربي» وأطلق عليها بعض النقاد «ثورات الربيع العبري»؛ لأنها لا تقدم إلا المصالح اليهودية في تقسيم الكيانات الإسلامية الكبرى إلى دويلات يسهل السيطرة عليها لضمان عدم خوضها حروبا كبرى مع تلك الكيانات تهدد وجودها.

كما استغلت الولايات المتحدة الخلافات المذهبية والطائفية في العالم الإسلامي في إدارتها للصراع بين السنة والشيعة من خلال دعم المشروع الإيراني في نشر المذهب الشيعي ودعمها في تكوين جيوب ودول شيعية بجوار دول وكيانات سنية كبرى لاستغلالها في تهديد أمن تلك الدول واستخدامها ورقة ضغط سياسية لإملاء شروطها حفاظا على مصالحها وأرض الأحداث وإدارة الصراع هي لبنان وسوريا واليمن – الحوثيون – وأطراف الصراع هي المعارضة السورية والنظام وحزب الله في سوريا ومن قبل ذلك في لبنان، والحوثيون اليمنيون والقوى السنية في اليمن تدعمها المملكة العربية السعودية وقوات التحالف العربي، والاحتلال الإيراني لجزر الإمارات العربية المتحدة الثلاث، والوجود الشيعي الإيراني الثوري في دولة البحرين. كل هذه الأطراف في الصراع المفتعل والمسيس والمغرض تدبره الولايات المتحدة والصهيونية العالمية والقوى الغربية في عالمنا الإسلامي وفي العمق الأكثر حساسية وفاعلية. فضلاً عن جر الجيش المصري إلى حرب استنزاف في سيناء تخوضها جماعات مغرضة باسم الإسلام في محاولة للقضاء عليه لصالح القوى الصهيونية.

إن الواقع العالمي الراهن يتطلب من المسلمين الفطانة في إدراك محركات الصراع وعوامله وأغراضه، ويتطلب طبيعة القوى المعادية للإسلام والمسلمين،

كما يفرض وبقوة دقة الفهم وعمق الفقه لمقاصد الشريعة الإسلامية التي تتلخص في حفظ الدين الإسلامي وحفظ النفس والدم والمال والعرض والنسل، والحفاظ على مقدراتنا الاقتصادية، وحفظ الأمن والاستقرار في ربوع بلادنا.. يجب على كل الأطراف المعنية بالصراع مقاومة خطط التقسيم الصهيوني للعالم الإسلامي والوقوف مع الحكومات والأنظمة في مكافحة ذلك ذلك لا ضدها.. ويجب عليها ألا تكون أداة تستغل ضد دولتها وشعوبها وحكامها.

ألا فليفطن الفطنون.. وليتذكر أولوا الألباب

وعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يفطنوا إلى هذه السنن الإلهية في الخلق ليحذروا الناس من الوقوع في مخاطرها والانسياق وراء القوى الداعمة لها، ولا ينسوا أن فقه السنن الإلهية في الخلق والكون ضابط لفقه منهج الدعوة الاستردادي واستخدام مفردات التاريخ المتمثلة في تفسير ظواهره وأحداثه ومشاهده بما يخدم الأداء الدعوي ويثري قيم الدعوة ويرسخ في معتقدات الناس وقناعاتهم قيم التاريخ في فقه واقع الإنسان وتاريخه، وفهم تاريخ الإمبراطوريات والممالك والدول وتوظيفه لخدمة قضايا الدعوة واستشراق مستقبل الأمة واستلهاما من الماضي القريب والبعيد.

ثالثاً: سنة التداول والتدافع والتمكين.

لا مرية أن لفهم سنة التداول والتدافع والتمكين في دراسات التاريخ وعلوم الاجتماع والعمران البشري أهمية بالغة لتفعيل الخطاب الديني في الممارسات الدعوية في الأوساط الدعوية الإسلامية وميادين العمل الدعوي.

ويعني بالتداول: مداولة أسباب القوة ومغايرة الأحوال لدى الناس.

ويعني بالتدافع: دفع الله تعالى الناس بعضهم ببعض، أو بالأحرى تقييض الله تعالى للضعفاء من يدافع عنهم ويحقق استقرارهم، أو دفع الله تعالى الأقوياء بالأقوياء ليعيش الضعفاء في مأمن.

ويعني بالتمكين: تمكين الله تعالى للضعفاء والمستضعفين في الأرض الآخذين بأسباب النصرة والتمكين من إقامة دين الله تعالى والاستمساك به والحفاظ عليه، أو بمعنى آخر تمكين الله تعالى فئة مؤمنة به صابرة على الإيذاء في سبيله من قبل قوى باغية ظالمة طاغية كافرة.

والتداول والدفع والتمكين مصطلحات ذات دلالات تصاعدية في تحقيق مفهوم النصرة من الله تعالى للمستضعفين من عباده في الأرض.. فالمصطلح الأول «التداول» يذكر الله تعالى به الظالمين من أن الأيام دول والأحوال كذلك، فضعفاء اليوم قد يكونوا أقوياء الغد، والمستضعفين اليوم قد يكونوا قادة الغد

وبالقياس في أحوال المعيشة فقراء اليوم قد يكونوا أغنياء الغد، وأغنياء اليوم قد يكونوا فقراء الغد، ومن أمِن مكر الله في يومه عاقبه الله تعالى في غده وقضاء الله يأتي في ساعة من ليل أو نهار. فالحديث عن التداول تذكير بقدرة الله تعالى على تصريف أحوال عباده وتدبير أمورهم.

وأما دلالة مصطلح «الدفع» فتمثل مرحلة انتقالية في كف الأذى عن المستضعفين وذلك بسليط القوى الباغية المستبدة على بعضها، أو تسليط قوة صالحة على أخرى غير صالحة ليعيش المستضعفين في كنفهم في أمان واستقرار على أن تحقيق هذا الأمن والاستقرار لم يكن ذاتياً من قبل المستضعفين، وإنما بتدبير الله تعالى لهم القوى التي تدافع عنهم.

أما دلالة مصطلح «التمكين» أن الله تعالى يمكن في الأرض لهؤلاء المستضعفين بأن يمكنهم من اكتساب وسائل القوة ويقدرهم على غيرهم حتى ولو كانوا كثرة باغية ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم وإقامة عقيدتهم وممارسة شعائرهم.

وفي هذا جاء قول الله تعالى: ﴿ۋۋۅۅۉۉ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿ٹٹٹٹڤڤڤڤڦڦڦڦ ڄڄڄڄڃڃڃڃچچچچ ڇڇڇڇڍڍ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿ٹٹٹٹڤڤڤڤڦڦڦڦڄڄڄڄڃڃڃڃچچچچ ڇڇ﴾ [3]، وقد وردت هذه اللفظة «دَفْعُ» مرتين فقط في القرآن الكريم.

أما دلالات التمكين فقد وردت في مرات عديدة في القرآن الكريم وكلها تبين ألا أحد يقدر على التمكين غير الله تعالى، لأن الله تعالى هو المهيمن والمتصرف في كونه المدبر شئون خلقه، ومن هذه الآيات قول الله تعالى:

1- ﴿ڇڇڇڍڍڌڌڎڎڈڈژژڑ﴾ [4].

2- ﴿ٱٻٻٻٻپپپپ﴾ [5].

3- ﴿ےےۓۓڭڭۇۇ﴾ [6].

4- ﴿ڌڌڎڎڈڈژژڑڑکککگگگ﴾ [7].

5 - ﴿ڤڤڤڦڦڄڄڄڄڃڃڃڃچچچچڇڇڍڍڌڌڎڎڈڈژژ﴾

(1) سورة آل عمران: 140.
(2) سورة البقرة: 251.
(3) سورة الحج: 40.
(4) سورة يوسف: 56.
(5) سورة الكهف: 84.
(6) سورة الأعراف: 10.
(7) سورة الحج: 41.

ک ک ک ک گ گ ژ [1].

6- ژ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ی ی ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تخ تم تى تي ثج ثم ثى ثي جح جم حج حم خج خح خم سج سح سخ سم صح صم ضج ضح ضم طح طم ظم عج عم غج غم فج فح فخ فم قح قم كج كح كخ كل كم گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ژ [2].

وهكذا يتضح من سياق الآيات الكريمة ما يلي:

أ– أن القوى الغاشمة والإمبراطوريات المستبدة والحضارات التي لا تتأسس على أيديولوجيات فكرية بمعزل عن الوحي الإلهي زائلة لا محالة.

ب– أن الله تعالى هو الخافض والرافع.. المعز والمذل.. القابض والباسط.. وأنه تعالى هو القاهر فوق عباده، كما قال تعالى: ژ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ژ [3]، والقاهرية تقتضي مطلق التصريف بمقتضى الإرادة والمشيئة الإلهية، وأن الناس خاضعون لهذه القاهرية سائرون في فلكها لا ينفكون عنها.

ج– أن الله تعالى وحده يقتص للضعفاء والمضطهدين من الظالمين المتكبرين الجبارين في الأرض المفسدين فيها الذين يبدلون أمن الناس خوفاً، وسعادتهم شقاء، وعزهم ذلا، لاسيما لو كان هؤلاء المضطهدين مؤمنين موحدين، وأن الله تعالى القادر وحده على تبديل خوفهم أمناً وشقاءهم سعادة وذلهم عزاً، وأنه تعالى يمكن لهم في الأرض ويمن عليهم ويجعلهم أئمة مصلحين وقادة مهديين ويجعلهم الوارثين الأرض بصلاحهم.

د– إن تمكين الله تعالى للناس بمقتضى قادريته ليس أمراً مكتسباً، وإنما هو من مقتضيات قاهرية الله تعالى وقادريته، وفي دائرة مَنَّه وعطائه وفضله ومنحه، ولكنه مشروط بإقامة الدين والعمل الصالح والاستقامة على ذلك والصبر على المحن والابتلاءات... ذلك أن آيات التمكين أسندت فعل التمكين إلى الله تعالى لا إلى غيره، وأنه مشروط بشروط معلق بتحقيقها. وأن التمكين لا يحصل بالأماني والرغبات، ولا يطلب بالنفس والاجتهاد في تحصيله، وإنما سبيله الاستقامة على دين الله تعالى.

وفي قصص الأنبياء وغيرهم في القرآن الكريم عِبَرٌ وآيات معجزة وقاهرة في تاريخ الإنسان ومفادها أن تعالى يهلك الظالمين وينصر المظلومين ويمكن لهم في الأرض بعد ضعف وإذلال، ومصادرة إرادتهم، وسلب ثرواتهم واستغلال الملأ – القوى الضالة التي لا تبحث إلا عن مصالحها الخاصة المتمثلة في الهيمنة والسلطة – ضعفهم وعجزهم عن الدفاع عن أنفسهم وتقرير مصيرهم.

---

(1) سورة النور: 25.
(2) سورة القصص: 4 – 6.
(3) سورة الأنعام: 18.

وإذا كان التاريخ الإنساني في هذا القصص الكريم مليء بالمذابح والمجازر وسلب الإرادات وقهر الشعوب فإنه مليء أيضاً بمشاهد النصر والفرج الإلهي بتحرير تلك الإرادات وتحقيق عزة المستضعفين في أرض الله.

وإذا كان التاريخ الإنساني في هذا القصص الكريم مليء بقيادات ظالمة وأئمة يدعون إلى النار فإنه مليء أيضاً بقيادات تخشى الله تعالى وتخافه وتتقيه.. وأئمة تهتدي بأمر الله.. وهذا ما يحقق سنة الله تعالى في كونه المتمثلة في «الدفع» و«التمكين» وفي ذلك عبر وآيات منها أنه لا يبقى في الأرض حضارة فاسدة ولا أمة ظالمة.. «فهل من مُدَّكر»!!.

وإذا أردت اختصاراً قوياً لتلك الأحداث الكبرى في تاريخ الإنسان والدعوات الإلهية فاقرأ سورة القمر بتمامها.

إن الكون بقبضة الله تعالى ﴿ئُوُئُوئۆ﴾ [1] يصيره كيف يشاء ويصوغه وفق إرادته وتقديره وتدبيره، فلتحذر القوى الغاشمة في الأرض من غضب الله تعالى، ولتعلم أن الله تعالى يغار على صفاته أن ينازعه فيها متكبر أو متجبر أو متعاظم، ولتتعظ إذا أرادت لتاريخها رشدا ولممالكها فطانة وحكمة ولعبر التاريخ ذكرا.. فكم من جبار في الأرض قصمه الله تعالى، وكم من أمة ظالمة أبادها الله تعالى، وكم من ملأ أهلكه الله تعالى، وكم من مظلومين صاروا أئمة وقادة!!.

تلك هي السنن الإلهية في الكون ومعرفتها وفقهها ضروريان من أجل الاستفادة منها في فهم منهج الدعوة الإسلامية الاستقرائي لآيات الكون الظاهرة والباطنة ومشاهد التاريخ الإنساني وأحداثه ودلائل الدعوة الحقة وبياناتها وفهم قضاياها وتطبيقها.

ثانياً: فقه السنن والظواهر الكونية:

لا مرية أن لفقه السنن الكونية أهمية كبرى لفهم مفردات وتقريرات منهج الدعوة الاسترادادي (التاريخي)، ومعرفة أهميته لتفعيل العمل الدعوي، وإثراء التجارب الدعوية، وتحقيق فاعلية الإعداد والتكوين الدعوي للدعاة، أي «بناء الداعية وتأسيسه وتكوينه وإعداده فكرياً ومنهجياً – فضلاً عن إعداده روحياً» ليتمكن من أداء رسالته في الدعوة إلى الله تعالى.

وأقصد بفقه السنن الكونية: معرفة الثوابت الكونية في الخلق والتكوين الإلهي، والتي تتسم بالثبات الظاهري والباطني (الجوهري) لانتظام وحدة الكون وفق تقدير الله تعالى وقاهريته على نحو من الثبات وعدم التغير والتحول والانتقال.

---

(1) سورة الزمر: 67.

ومثال ذلك:

1– انتظام حركة المجرات الكونية بما تشتمل عليه من مجموعات شمسية قد تتشابه أو تختلف مع المجموعة الشمسية التي نعيش فيها.

2– انتظام حركة الأجرام الكونية كحركة الشمس والقمر والنجوم والكواكب الدائرة في فلكهما. قال تعالى: ژ**ئۇئۆئۈئېئېئىئىئدى ىيي**□ □ □ □ □ژ[1] ومن قبل هذه الآية قول الله تعالى: ژ**ئەئەئوئوئۇئۇ ئۆئۆ**ژ[2].

3– تعاقب الليل والنهار في ثبات وانتظام مستمر منذ بداية الخلق الإلهي للكون إلى وقتنا هذا وإلى قيام الساعة وفق دلالات ومضامين الوحي الإلهي الكريم، قال تعالى: ژ**ڈڈڈڈژژڑڑکککگگگگپپپپگگ**ژ[3].

4– الثبات الكوني: أي ثبات الكون على حالته التي خلقه الله تعالى عليها منذ أن خلقه الله تعالى؛ من حيث البنى التكوينية والجرمية، وإن كان العلم الحديث يثبت أن الكون مازال في حالة اتساع عن طريق التمدد الكوني بانشطار بعض الأجرام واستقلال المنشق منها بجرمه وطبيعته مع ثبات كونه منتظماً داخل الإطار العام للمنظومة الكونية[4]، وينتظم هذا قول الله تعالى: ژ**ئۇئۇئۆئۆئۈئۈ**ژ[5].

5– ثبات الأرض وتسويتها فرشاً وتمهيداً لتكون صالحة لحياة الإنسان وغيره من المخلوقات واستيعاب حركة الحياة اللحظية والمستقبلية بصورة مطردة ومنتظمة، وينتظم هذا قول الله تعالى: ژ**ئېئېئىئىئ**ژ[6].

6– تقدير الأقوات بأسبابها وتكوينها وأشكالها وأحجامها وتغاير طبيعتها واختلافها وتنوعها، قال تعالى في معرض إقامة الحجة على الكفار: ژ**ٹٹٹٹۀۀہہہہھھےےۓۓڭڭڭۇۇۆۆۈۈ**ژ[7]، ويدخل في هاتين

---

(1) سورة يس: 40.
(2) سورة يس: 39.
(3) سورة الإسراء: 12.
(4) راجع في هذا: الإسلام في عصر العلم. للشيخ الغمراوي، والإعجاز العلمي في القرآن الكريم للزنداني وغيرهما من البحوث التي ألفت في هذا الصدد. فقد تناولت تفصيلات ذلك.
(5) سورة الذاريات: 47.
(6) سورة الذاريات: 48.
(7) سورة فصلت: 9، 10.

الآيتين الكريمتين أسباب تكوين الأقوات من تهيئة الأرض للإنبات وتكوين السحاب وتسخير الرياح لسوقها إلى الأرض التي أراد الله تعالى لإنزال الماء الذي هو لازم من لوازم عملية الإنبات، ويدخل فيها تقدير الأقوات في البحار والمعادن في باطن الأرض ومصادر الطاقة اللازمة لحياة الإنسان وعمران الأرض.

7– تماسك المادة وهي سنة لازمة لبقاء المادة واستمرارية بقاء الكون وتماسك أجرامه ومكوناته، وينتظم هذا قول الله تعالى: ژ ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ژ [1]، وهو ما يمكن أن نطلق عليه سنة أو قانون «إمساك المادة» وبدون هذا القانون أو السنة لا يتصور بقاء المادة، وبالتالي لا يتصور بقاء الكون. ويدخل فيها قياساً إمساك المادة المكونة لأنسجة المخلوقات والكائنات الحية في الكون، ويمكن أن يطلق عليه «إمساك الأنسجة الحية من التحلل» وبالتالي حفظها من التلف.

8– تكوين الطاقة اللازمة لحركة الكون والحياة المستمدة من الشمس أو مصادرها الأخرى ومنها الطاقة المتولدة من حركة المياه المتولدة ومن حركة الرياح وضوء الشمس فيما يعرف بالطاقة الشمسية، والثروة البترولية في باطن الأرض، وما يمكن أن يستجد منها في أروقة البحث العلمي، وهي قائمة باقية يثبتها الحس ويبرهن عليها العقل، وكذلك المتولدة من الطاقة الحية والمركبات العضوية، وينتظم ذلك كله نصاً وقياساً قول الله تعالى: ژ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ژ [2]، ويمكن تفسيره بـ «كمون الطاقة في المادة الحية» ويقاس عليها مصادر الطاقة الأخرى، أي «كمون الطاقة في مصادرها» المختلفة والمتنوعة، واقتضت حكمة الله تعالى منذ بدأ الخليقة أن يستفيد منها أهل كل عصر بما أوتوا من علم وفق معطيات العصور وتطور العقل البشري في البحث والتنقيب عن تلك المصادر في الكون.

9– التوازن البيئي: وهو سنة إلهية تنتظم الكون لبقاء المخلوقات فيه والحفاظ على حياتهم ومقدراتهم، وإطاقة الحياة فيه، وقد عنيت الشريعة الإسلامية بالحفاظ على هذا التوازن فيما اعتبره أصولاً دلالية يتأسس عليها بقاء تلك السنة الإلهية والمحافظة عليها، وعدم العبث بها حتى لا تختل توازنات البيئة فتؤثر على وجود المخلوقات وحياتهم ومنافعهم.. منها ما ورد في السنة الشريفة عَنْ

(1) سورة فاطر: 41.
(2) سورة يس: 80.

أَبِى الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ε) أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ[1]، كما نهى (ε) عن قضاء الحاجة في الطريق وفي الظل، واعتبره سبباً للعن صاحبه فقال (ε): «اتقوا الملاعن الثلاثة البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[2] ويدخل فيها عموم الظل، كما أن النظافة مبدأ من مبادئ الشرع الحنيف ويشمل نظافة الجسد وضوءاً واستحماماً، ونظافة الفم والطهارة من الحدثين، وتنظيف المكان الذي يقطن فيه الإنسان من القاذورات، ولهذا أثر طيب في إزالة الميكروبات والجراثيم من الجسم ومكان الإقامة، كما ورد في السنة الشريفة أيضاً أن الرسول (ε) أمر بإطفاء السراج وتخمير السقاء[3]... وبإطلاق كان مبدأ الإسلام العام «إن الله جميل يحب الجمال» فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ (ε) قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[4].

هذا من جانب ومن جانب آخر في العلوم الحية، أو ما يطلق عليه علم الأحياء بصورة دقيقة قد اشتملت هذه العلوم على كثير من البحوث الحية في علم الحشرات والبكتيريا والجراثيم والفيروسات وغيرها من الكائنات الدقيقة والكائنات متناهية الصغر فيما يعرف بالميكروبيولوجي، ومباحث المادة الحية وتخمرها والمسكرات والمخدرات ومن الأخيرة نتج علم التخدير الذي يؤثر على الخلايا العصبية المتعلقة بالحس والشعور والاستفادة منها في التطبيب وإجراء العمليات الجراحية، على أن مبدأ التعامل مع هذه الكائنات والعمليات الحيوية يكون في إطار ما تقتضيه حاجة الإنسان الضرورية بميزان وسط ينتظمه قول الرسول (ε) في المطلق: «لا ضرر ولا ضرار» [5]، لاسيما وقد ثبت علمياً من خلال البحث في علوم الحياة والمادة الحية المستخلصة منها أن منها ما هو مفيد للإنسان ومنها ما هو ضار به، ولذا كان من مقتضى الحكمة الإلهية في التشريع

(1) أخرجه مسلم في صحيحه: باب النهي عن البول في الماء الراكد جـ 1 ص 235 رقم (681).
(2) سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، باب المواضع التي نهى النبي (ε) عن التبول فيها جـ 1 ص 7، ح رقم (26) – المكتبة العصرية – صيد – بيروت – بدون تاريخ.
(3) مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون جـ 372/34، ح رقم (20775) – مؤسسة الرسالة، ط: أولى 1421هـ - 2001م.
(4) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: باب تحريم الكبر وبيانه ح رقم 275.
(5) أخرجه ابن ماجة في سننه، تحقيق/محمد فؤاد عبد الباقي، باب من بنى في حقهما يضر جاره جـ 2 ص 784، ح رقم (2341) – دار إحياء الكتب العربية – بدون تاريخ.

تجنب المضار بكل صورها والاستفادة بكل نافع وفق ما تقتضيه الضرورة..

ويدخل في هذين المبدأين التشريعيين «النظافة من الإيمان»، و«لا ضرر ولا ضرار» الحفاظ على نظافة البيئة المحيطة بالإنسان من كل الملوثات المادية والسمعية والبصرية المضرة بالإنسان، والمادة الحياة والبيئة والحياة في الكون والمؤثرة في السلوك الإنساني المؤثر على مسارات الاعتقاد والتعبد والالتزام بشرع الله تعالى، وحتى لا يكون الإنسان شذوذاً في كون يسبح بحمد الله.

إن ما ذكرناه من السنن الكونية لا يعدو كونه نموذجاً أو أمثلة توضيحية للوقوف على فقه السنن الكونية، وليس على سبيل التفصيل، فثمة سنن كثيرة في الكون هدى الله تعالى المتأملين والناظرين إليها، وثمة سنن وآيات كونية باهرة وعد الله تعالى بكشفها للإنسان في مستقبل الزمن إن اجتهد في تأمله وأصاب في إدراكه، وأزال عنه معوقات الإدراك.. قال الله تعالى: ژ**ئوئوئۇئۇئۆئۆئۈئۈئې ئېئېئىئىئيبج** ژ[1].

مفهوم الظواهر الكونية: نعني بالظواهر الكونية تلك الأعراض الطارئة على جوهر الكون وثبات سننه بصورة قوية تمثل ظاهرة بارزة لوسائل الحس الإدراكي الإنساني وتستوعبه العقول في ذهول، وتمثل خرقاً جزئياً مؤقتاً لثبات السنن الكونية.

على أن المقصد من حدوث هذه الظواهر الكونية يتمثل فيما يلي:

1– التذكير بقادرية الله تعالى وهيمنته على كونه.

2– التدليل على طلاقة القدرة الإلهية والبرهنة على قاهرية الله تعالى وتصريفه وتدبيره شئون كونه.

لفت أنظار الناس إلى إمكانية زوال حالة الثبات الكوني وإيقاع العقوبة الإلهية.. فقد يكون ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب.

ودليل ذلك قول الله تعالى: ژ**ڃڃڃڃڃڃچچچچڇڇڇڇڍڍڌڌڎڎڈژ ژ ڑڑک ککگگگگڳڳ**ژ[2].

ومن أمثلة هذه الظواهر الكونية الرعد والبرق والزلازل والبراكين وما يتبعها في الطقس والمناخ، وقد أهلك الله تعالى الأمم السابقة التي كذبت رسلها وكفرت برسالات ربها بإحداث مثل هذه الظواهر وتعذيبهم وإهلاكهم بها. قال الله تعالى: ژ**ٱٻٻٻپپپپڀڀڀڀٺٺٺٺٿٿٿٿٹٹٹٹٹٹ ڤڤڤڤڦڦڦڦڄڄ**

(1) سورة فصلت: 53.
(2) سورة الملك:16 – 18.

ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽ﴾﴿﵀ ﵁﵂ ﵃﵄ﵧ[1]، وثمة آيات عديدة في القرآن الكريم تتحدث عن هذه الظواهر فليرجع إليها.

ومع أن فقه السنن والظواهر الكونية والإنسانية متعلق من طرف بمنهج الدعوة الاستردادي «التاريخي» باعتباره واقعاً عاصره الإنسان منذ خلافته في الأرض إلى وقتنا هذا وإلى أن تقوم الساعة، فإن الفهم الدقيق والإدراك الكامل لهذه السنن وتلك، متوقف أيضاً على فهم منهج الدعوة الوصفي.

وفيما يلي نبحث هذا المنهج ونقف على دلالاته النصية:

(1) سورة البقرة: 17 – 20.

F و K

1- القرآن الكريم.
2– أديان العالم للبروفسور. د هوستن سميث، أستاذ الفلسفة وعلم الأديان في عدة جامعات أمريكية، ترجمة سعد رستم – دار الجسور الثقافية، ط: أولى 1426 هـ - 2005 م.
3– الفصل في الملل ولأهواء والنحل لابن حزم، تحقيق / أحمد السيد سيد أحمد – المكتبة التوفيقية – القاهرة – بدون تاريخ.
4– الدين «بحوث ممهدة لدراسة الأديان» د / محمد دراز – دار القلم للنشر والتوزيع – القاهرة، ط: 5 / 1424 هـ - 2003 م.
5– الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام، د / علي عبد الواحد وافي – نهضة مصر 1984 م.
6– التفكير الديني في العالم قبل الإسلام – مطالعة في مكتبة علماء الملايو – د / جامع أوانج كابي رحمات بن داتو بحر الدين، عرض وترجمة وتعليق د / رءوف شلبي – دار الثقافة – الدوحة 1403 هـ - 1983 م.
7– الإنسان والأديان دراسة ومقارنة، د / محمد كمال جعفر – دار الثقافة – قطر، ط: أولى 1406 هـ - 1985 م.
8– صحيح البخاري – دار الحديث – القاهرة 1425 هـ - 2004 م.
9– تفسير القرآن العظيم، الإمام ابن كثير، تحقيق / سامي بن محمد سلامة – دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: 2 / 1420هـ - 1999م.
10– التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د / وهبة الزحيلي – دار الفكر المعاصر – دمشق، ط: ثانية 1418هـ.
11– زهرة التفاسير، للإمام محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة – دار الفكر العربي – القاهرة – بدون تاريخ.
12– صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون تاريخ.
13– صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: أولى 1408 هـ - 1988 م.
14– معرفة السنن والآثار، للإمام البيهقي، تحقيق / عبد المعطي أمين – الناشر جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي – باكستان – دار قتيبة – دمشق – دار الوفاء – القاهرة، ط: أولى 1412 هـ - 1999 م.
15– جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق / أحمد

محمد شاكر – مؤسسة الرسالة، ط: أولى 1420هـ - 2000 م.
16– التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د / محمد سيد طنطاوي – دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ط: أولى 1997 – 1998 م.
17– الإسلام في عصر العلم، د / محمد الغمرواي، تقديم د / عبد الحليم محمود – دار الإنسان للتأليف والترجمة والنشر – القاهرة، ط: 4 / 1411 هـ - 1991 م.
18– سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة ط: أولى 1421 هـ - 2001 م.
19– سنن ابن ماجة، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء الكتب العربية – بدون تاريخ.
20– لسان العرب للعلامة ابن منظور – دار المعارف – بدون تاريخ.
21– مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي – المطبعة الأميرية – القاهرة 1345 هـ - 1926 م.

فهرس الموضوعات

الموضـوع	الصفحة
المقدمة	3
قواعد منهج الدعوة الاسترادي وخصائصه	5
المبحث الأول: قواعد المنهج الدعوي الاسترادي	6
أولاً: السرد والتوثيق	6
ثانياً: المقارنات النصية	8
ثالثاً: تجريد الأحداث والوقائع التاريخية	10
رابعاً: فقه المضامين الروائية	13
التحديات التاريخية لفقه المضامين الروائية	15
خامساً: استنطاق الواقع التاريخي وتجنب الغرض المعرفي	17
المبحث الثاني: خصائص منهج الدعوة الاسترادي	19
أولاً: البناء المعرفي التراكمي	19
ثانياً: إعلاء القيم التاريخية	23
ثالثاً: فقه الواقع الإنساني والكوني	28
محاور فقه الواقع الإنساني والكوني	29
أولاً: فقه الطبيعة الرسالية	30
فقه طبيعة الإنسان	33
أولاً: محور التكوين	33
أ– البنية التكوينية المادية	33
ب– البنية التكوينية الروحية	38
ثانياً: فقه السنن الإنسانية والكونية	42
أولاً: سنن الله تعالى الإنسانية	43
مفهوم السنة	44
أولاً: السنة في دلالات الاشتقاق اللغوي	44
ثانياً: في الاصطلاح	45
سنتا الإيجاد والإعدام الإلهيتين	47
القياسات العقلية وفهم سنتي الإيجاد والإعدام	52

أولاً: قياسات العقول الممكنة تصوراً وتدبراً	**52**
ثانياً: القياسات العقلية الفاسدة	**53**
سنن العناية الربانية	**56**
حب المنشأ	**61**
الاجتماع البشري	**64**
أولاً: التنافس والغبطة	**65**
ثانياً: التمايز والتغايظ والصراع	**67**
ثالثاً: سنة التداول والتدافع والتمكين	**77**
ثانياً: فقه السنن والظواهر الكونية	**82**
مفهوم الظواهر الكونية	**89**
فهرس المصادر والمراجع	**91**
فهرس الموضوعات	**93**